جامعة المنصورة
كلية التربية

بلاغـــة (التعريـــف بالإضافـــة)

فـى سيـاق القـرآن الكريـم

إعداد

د. محمد السيد عبد الرازق موسى
الأستاذ المساعد للبلاغة والنقد - قسم اللغة العربية
كلية التربية - جامعة المنصورة

مجلة كلية التربية - جامعة المنصورة - العدد ٧٠ - مايو ٢٠٠٩

بَلاَغَةُ التَّعْرِيفِ بالإضَافَةِ فِي سِيَاقِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

د. محمد السيد عبد الرازق موسى

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين "وبعد":

يتخذ هذا البحث من القرآن الكريم مجالاً للقراءة والتحليل للوقوف على بلاغة الإضافة فى سياقاته عبر ثلاثة مشاهد رئيسة هى: مشاهد اليوم الآخر (القيامة والجنة والنار) ومشاهد القصص القرآنى ومشاهد خطاب النبى ﷺ؛ فلا شك أن الأسلوب القرآنى يعد أنموذجا فريدًا ومثالاً رفيعًا بل هو أعلى نص مُنزّل وأرفعه قد بلغ درجة الكمال في الإعجاز بلفظه ومعناه، وقد تعهد الله -سبحانه- بحفظه وصونه عن أيدى العابثين والحاقدين الجاحدين فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩] فلا ينال منه متجرئ على الرغم من توالى القرون وتباعدها بل كان معينًا بأساليبه وتراكيبه لكل من أراد أن يتلمس الفصاحة والبلاغة فهز أوتار القلوب بمعانيه الصافية السامية وكان أثره بالغًا فى اللسان العربى وتوجيه الإبداع الأدبى.

والإضافة في اللغة: مطلق الإسناد والضم، ومن ذلك قولنا: (الضيف) لأنه حين ينزل بالقوم ينضاف إليهم، وينضاف إلى جمعهم، ويقول امرؤ القيس يصف بيتًا استضافه وأصحابه فأسندوا ظهورهم فيه إلى مساند مخططة[(١)]:

فَلَمّا دَخَلْناهُ أَضَفْنا ظُهورَنا ... إِلى كُلِّ حارِيٍّ جَديدٍ مُشَطَّبِ

أما لدى النحاة: فالإضافة ضم اسم إلى آخر مع تنزيل الثانى من الأول منزلة تنوينه أو ما يقوم مقام تنوينه؛ وبحيث لا يتم المعنى المقصود إلا بالكلمتين المركبتين معًا [(٢)].

---

(١) امرؤ القيس – ديوانه - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم _ ط ٤ _ دار المعارف _ القاهرة _ ١٩٨٤ _ صـ٥٣

(٢) د/ محمد عيد – النحو المصفى _ط ١_عالم المكتب_ القاهرة_ ٢٠٠٥_ صـ٤٣٤.

والتركيب الإضافي هيئة لها مزية خاصة في الجملة العربية التي لا تكاد تحلو من سياقاتها وقد تحدث النحاة والبلاغيون في مطولاتهم عن أقسامها ومواقعها في الكلام، وقد قسمها النحاة إلى إضافة معنوية وأخرى لفظية التي جعلوا ضابطها " أن يكون المضاف صفة شبيهة بالمضارع في كونها للحال أو الاستقبال والمضاف إليه معمولاً لتلك الصفة، والمراد بالصفة: اسم الفاعل كضارب زيد، واسم المفعول كمضروب العبد، والصفة المشبهة كحسن الوجه، وكما تسمَّى هذه الإضافة لفظية، كذلك تسمَّى غير محضة (غير خالصة)؛ لأنها في تقدير الانفصال[١]

وعلى هذا فإن هذا النوع من الإضافة اللفظية يكون خارج موضوع البحث؛ لأن" المعنى في الإضافة اللفظية على ما كان عليه لو لم يُضَفْ؛ لأنها لا تفيد غير تخفيف اللفظ وهو حذف التنوين أو ما يقوم مقامه .. والإضافة اللفظية لا تفيد تعريفًا؛ لأنه يجوز جعل المضاف إضافة لفظية صفة للنكرة دون المعرفة نحو: مررت برجل حسن الوجه، وبرجل ضارب زيد[٢].

فمدار البحث -إذن- يكون على الإضافة المعنوية وهي الأسماء المضافة إلى المعرفة، وليست صفة مضافة إلى معمولها، أي: إلى مرفوعها أو منصوبها، وقد جعلها النحاة " بمعنى اللام فيما عدا جنس المضاف وظرفه، أو بمعنى "من" في جنس المضاف أو بمعنى: "في" ظرفه، وهو قليل نحو: "غلام زيد" و "خاتم فضة" و"ضرب اليوم" وتفيد تعريفًا مع الإضافة، وتخصيصًا مع النكرة، وشرطها تجرد المضاف من التعريف[٣] إلا أن النحاة لم يجمعوا على هذا التقسيم؛ بل ذهب بعضهم إلى أن الإضافة ليست على تقدير حرف مما ذكر ولا نيته، وذهب بعضهم إلى أن

---

(١) الجوجري – شرح شذور الذهب_تحقيق د. الحارثي_ط١_ مكتبة الملك فهد الوطنية_ السعودية_ ٢٠٠٤_ ج ٢_صـ٥٨٥.

(٢) عماد الدين الأيوبي_الكناش في فني النحو والصرف_ تحقيق د. رياض الخوام_ المكتبة العصرية_بيروت_ ٢٠٠٠_ صـ٢١٤،٢١٦.

(٣) رضي الدين بن الحسن_ شرح كافية ابن الحاجب_ تحقيق د.اميل يعقوب_ ط١ _ دار الكتب العلمية_ بيروت_ ١٩٩٨_ صـ٢٣٧.

الإضافة بمعنى: اللام على كل حال وذهب سيبويه والجمهور إلى أن الإضـــافة لا تعدو أن تكون بمعنى اللام، أو "من" وموهم الإضافة بمعنى: "في" محمول على أنها فيه بمعنى اللام توسعًا [١]

والإضافة المعنوية لا تأتى على وتيرة واحدة أو نظام ثابت بل قد تأتى لازمـــة للإضافة، وقد تأتى غير لازمة لها، وتأتى "اللازمة على ضربين: ظروف وغيـــر ظروف؛ فالظروف نحو: فوق وتحت وأمام وقدام وعند ولدن ولـــدى وبـــين .. ، وغير الظروف نحو: مثل وشبه وغير وأي وبعض وكل وكلا .. وغير اللازمـــة نحو: ثواب ودار وفرس وغيرهما مما يضاف فى حال دون حال[٢]

وإذا كان النحاة قد بسطوا القول فى الحديث عن الإضافة وهيئتهـــا وتركيبهـــا وأنواعها فإن بعضهم كانوا يشيرون إلى المزية البلاغية المصاحبة لها، وأنها ما سيقت فى مواضعها المنوطة بالدلالة إلا للإيحاء بالمعانى الجمالية الحاملة لها فتعمل على إثارة الذهن واهتزاز النفس؛ ومن ذلك ما تمثلوا به فى مقام الإضافة المجازيـــة – بتغيير البلاغيين- أو الاسم المضاف إلى ظرفه بمعنى: "في" –بتعبير النحويين– فى قولنا: يا سارق الليلة أهل الدار، قال صاحب حماة معلقًا: سرق الليلة نفسها علـــى سبيل المبالغة [٣]

وما جاء أيضا فى شرح الكافية عند الوقوف مع جملة: "غلام زيد راكب"، وكان لزيد غلمان كثيرون يقول: " فلا بد أن تشير به إلى غلام من بين غلمانه له مزيـــة خصوصية بزيد؛ إما بكونه أعظم غلمانه أو اشتهر بكونه غلامًا له دون غيـــره أو بكونه غلامًا معهودًا بينك وبين المخاطب[٤]

---

(١) الأشمونى _ شرح الأشمونى على الفية ابن مالك_ تقديم وإشراف حسن حمد ود. إميل يعقوب _ط ١_دار الكتب العلمية _ بيروت_ ١٩٩٨_ (٢\١٢٣).

(٢) الخوارزمى _ شرح المفصل في صنعة الإعراب_ تحقيق د.عبد الرحمن العثيمين _ط١_دار الغرب الإسلامى _بيروت_١٩٩٠_ (٢\١٨،١٩).

(٣) عماد الدين الأيوبى _ الكناش _ صـــ٢٢٣.

(٤) شرح كافية ابن الحاجب_(٢\٢٣٨)

فهذه الأغراض البلاغية المذكورة من المبالغة فى إظهار الحدث وتجسيمه أو إظهار الخصوصية أو التعظيم أو التمييز هي من الأغراض البلاغية التى أضاف إليها البلاغيون أغراضًا أخرى كثيرة كالذم والإهانة نحو:" علماء البلد فعلوا كذا من الأمور القبيحة، فإن فى هذا تصريحًا بذمهم بخلاف لو قيل: فلان وفلان فعلوا كذا من الأمور القبيحة؛ فإنه عند التصريح باسمهم العلَم لم يكن هناك تصريح بذمهم واللوم عليهم؛ لأن الموجب للوم والذم وصفهم بالعلم وهو لا يأتى إلا بالإضافة[1].

فالسياق فاصل فى اعتبار الغرض فى المثال المذكور فمن الممكن أن تأتى هذه الإضافة فى سياق آخر، وتكون لغرض الاستغناء عن التفصيل المتعذر نحو: علماء البلد أجمعوا على كذا.

وبتباين السياقات تتباين الأغراض العديدة والدلالات الفريدة والمفيدة فى إبراز المعانى فى صورتها المطلوبة؛ لتحضر ماثلة فى ذهن المتلقى وفؤاده فقد تأتى الإضافة "للاستعطاف كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة٢٣٣].

أو قد تتضمن معنى لطيفًا مجازيًّا نحو قول الشاعر:

إذا كَوْكَبُ الخَرْقَاء لاح بسحرة سُهيلٌ أذاعت غزلَها فى القَرَائِبِ

---

(١) حاشية الدسوقى على مختصر السعد _شرح تلخيص المفتاح_ تحقيق د.خليل إبراهيم _ط١_دار الكتب العلمية _ بيروت _٢٠٠٢_(٦٣٠/١١)

فأضاف الكوكب إلى الخرقاء لأدنى ملابسه [١] والخرقاء: المرأة الحمقاء كانت تضيع وقتها في الصيف فإذا طلع سهيل –وهو كوكب قريب من القطب الجنوبي– في السحر، وذلك قرب الشتاء أحست بالبرد ففرقت غزلها –أي: قطنها– في أقاربها ليغزلوا لها"[٢]

وقد تأتي الإضافة للحث أو التحريض على فعل شيء أو تركه أو تأتي في بعض المقامات من أجل الاستهزاء أو السخرية ويظهر هذا جليًا في كثير من مواضع الإضافة للضمير نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء٢٧] هذا ولطائف التعريف بالإضافة كثيرة لا يمكن حصرها، ولكن يمكن اعتبار ما يكون مناسبًا في كل مقام، ولذلك قال السكاكي بعد عرضه لبعض الأغراض البلاغية للإضافة " أو غرضًا من الأغراض ممكن التعلق بالإضافة[٣].

بَلاغَةُ التَعْرِيفِ بِالإِضَافَةِ فِي مَشَاهِدِ الآخِرَةِ

يتسم الأسلوب القرآني فيما يتسم بالقدرة على إبراز المشاهد المختلفة في صورة حية ماثلة في الأذهان ومجسدة للعيان؛ فتتغاير الأساليب وتبرز الكلمات منسجمة ومتآلفة لإحضار المعنى بكل أجزائه ومفرداته، فما تؤديه الكلمة من إيجاءات معينة في مشهد ما لا تؤديه بنفس الدلالات في مشهد آخر، فلكل مشهد كلماته المختارة وتركيباته المناسبة وتصويره المعبر عن معانيه فإن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية[٤]

---

(١) عبد المتعال الصعيدى _ بغية الإيضاح_ مكتبة الآداب_القاهرة_ (١٠١\١).

(٢) الهاشمي_ جواهر البلاغة_ شرح وتحقيق حسن حمد_دار الجيل _ بيروت_ صـ٩٠.

(٣) السكاكي_ مفتاح العلوم_ تحقيق د.عبد الحميد هنداوي_ ط١_ دار الكتب العلمية_ بيروت_٢٠٠٠_ صـ٢٨٢.

(٤) سيد قطب ..مشاهد القيامة في القرآن_ دار الشروق_ بيروت_ القاهرة_ صـ٢٣٠.

الحديث الوارد عن القيامة ومشاهدها فى القرآن الكريم قد ورد كثيرًا وبصفة خاصة فى السور والآيات المكية التى نزلت فى السنين الأولى من الوحى؛ بغية تحريك القلوب والقضاء على قساوتها ونقلها من الكفر إلى الإيمان، بيد أن إضافة اليوم إلى القيامة لم تأت على وتيرة واحدة، بل جاءت بأسماء عديدة لتؤدى أغراض مفيدة يقتضيها السياق من أجل إبراز المشهد، وتطالعنا الإضافة -أول ما تطالعنا- فى أعظم سورة نزلت فى القرآن الكريم وهى سورة الفاتحة، وذلك فى قوله تعالى:" ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة٤]" [١] فأضاف اليوم إلى كلمة الدين؛ وهى إضافة ذات معنى وإيحاء لا تؤديه إضافات أخرى وردت فى آيات قرآنية فى مواضع كثيرة نحو: يوم البعث ويوم التلاق ويوم الحسرة ويوم الوقت المعلوم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم الحساب .. فإضافة اليوم إلى الدين وهو يوم القيامة؛ لأنه "يُدَان الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها" لأن فى ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته وانقطاع أملاك الخلق، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام[٢].

و"مالك" هي قراءة عاصم والكسائى وقرأ الجمهور: "ملك" بدون ألف، وهو ما دعا إلى الوقوف أمام القراءتين من قبل المفسرين لبيان خصوصية كُلٍّ من القراءتين وصفتهما "وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين؛ فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا فى إفادة أنه المتصرف فى شئون ذلك اليوم دون شبهة مشارك [٣]، هذا ولم يفرق البقاعى بين القراءتين فى الدلالة، وقال: وذلك لأن

---

(١) الفاتحة الآية رقم(٤).

(٢) السعدى_تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان_ تحقيق: عبد الرحمن اللويحق _ ط١_دار ابن حزم_ بيروت_٢٠٠٣_ صـ٢٥.

(٣) ابن عاشور_ التحرير والتنوير_الدار التونسية للنشر_ تونس_ ١٩٨٤_ (١/١٧٥).

المالك إذا أضيف إلى اليوم أفاد اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض، فلا يكون لأحد معه أمر ولا معنى للملك سوى هذا [١].

والسياق الذى وردت فيه هذه الإضافة هو الذى استدعى تلك الكلمة بعينها (الدين) فقد جاءت فى سياق الثناء على الله بكل صفات الكمال ومجامع الحمد (الحمد لله) وأنه المربى لجميع خلقه ومدبر حاجاتهم وشئونهم (رب العالمين) وهذا من آثار رحمته الواجب الإيمان بها فى أسمائه وصفاته (الرحمن الرحمن).. ثم أُرْدِفَتْ جملة (مالك يوم الدين) بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بما فيها من تقديم المعمول: (إيا) وتقديم: (نعبد) على: (نستعين) لأن العبد إذا عبد ربه حق عبادته كما أمره خالقه أدت تلك العبادة الحقة إلى الاستعانة الخالصة، وهو تقديم للعام على الخاص؛ فإذا فعل ذلك هدى إلى: (الصراط المستقيم).

فجاءت هذه الآية الكريمة: (مالك يوم الدين) بتلك الإضافة مسبوقة بتلك المعانى وألحقت بذلك البيان الناصع.

لتحريك النفس وتهز القلب لذلك الموقف فى ذلك اليوم "لأن إيثار لفظ الدين، أي: الجزاء للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل أعماله المَجْزِىّ عليها فى الخير والشر وذلك العدل الخالص، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر ١٧] فلذلك لم يقل: مالك يوم الحساب، فوصفه بأنه مالك يوم العدل الصِّرف وصفه له بأشرف معنى الملك[٢].

وقد وردت مثل هذه الإضافة فى سياقات عديدة أخرى فى القرآن الكريم لإظهار كمال قدرة الله -تعالى- بملكيته لهذا اليوم وتلاشى الأملاك الأخرى؛ ليبرز ميزان الجزاء والعدل، ولذلك إذا تتبعنا سياقات إضافة اليوم إلى الدين وجدناها وردت فى

---

(١) البقاعى _ نظم الدرر _ فى تناسب الآيات والسور _ تحقيق عبد الرازق المهدى _ ط١ _ دار الكتب العلمية _ بيروت _ ١٩٩٥ _ (١٦/١).

(٢) التحرير والتنوير _ (١٧٧/١).

ساحة القضاء الأخروى، وقد وردت جميعها فى مداينة المكذبين بهذا اليوم وإقامة الحجة عليهم إلا مشهدين؛ جاء في أحدهما تصوير تضرع نبى الله إبراهيم -عليه السلام- وخوفه من المداينة والتداين يوم الجزاء!.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء٧٥-٨٢]

وقد جاءت هذه الإضافة فى سياق الإستفهام الإنكارى التوبيخى :" أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ" وفيها إجمال "كنتم" جاء بعد التفصيل ب: "أنتم وآباؤكم الأقدمون"؛ ليفيد شمول جيلهم وعموم جيل آبائهم وأجدادهم وبيان توارث الكفر فى السابقين واللاحقين منهم دون إعمال للعقل أو إتاحة للنظر والتأمل الذى حركه واستدعاه بذكر النعم العديدة الموجبة لمعرفة الخالق -سبحانه- من الخلق والهداية والطعام والشراب والشفاء والحياة بعد الموت؛ ولذلك جاءت الإضافة ب: "رب العالمين" وذكر الربوبية إيثارًا على ذكر لفظ الجلالة: "الله" فى ذلك المقام.

وجاء المشهد الآخر فى تصوير جزاء المصدقين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج٢٦-٣٥].

أما فى غير هذين الموضعين فقد وردت تلك الإضافة فى سياق الوعيد كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر٣٣-٣٥] وإلى " تفيد الغاية والنهاية، وهذا وعيد ينتظره لا محالة؛ ولذلك جاءت الآية مؤكَّدة ب: "إن" وتقديم خبرها "عليك" مع أن

اسمها معرف بأل: "اللعنة" لإبراز شخصيته الملعونة وأن له خصوصية خاصة فى اللعنة، وقد جاء هذا السياق مغايرًا لسياق آخر ورد فى قوله تعالى: " ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص٧٦-٧٧] وربما الذى استدعى الإضافة لياء المتكلم فى قوله: "لعنتى" أن السياق قبل ذلك جاء على هذا النسق بتاء المتكلم والإضافة إليها أيضًا فقال جل شأنه: " ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص٧٥] أما فى سياق سورة الحجر فقد جاء بتاء المخاطب: "خلقته" فناسب ألاَّ تضاف "اللعنة" كما أضيفت في سورة (ص) والله تعالى أعلم.

وقال الكرمانى[١]: إن الكلام جرى فى هذه السورة -سورة الحجر- على الجنس من أول القصة فى قوله: "ولقد خلقنا الإنسان "٢٦" والجان خلقناه "٢٧" فسجد الملائكة كلهم " ٣٠ " كذلك قال: عليك اللعنة وهو قريب من قول ابن جماعة[٢] لما أضاف خلق آدم إليه تشريفًا له لقوله: " خلقت بيدى " أضاف طرد عدوه إليه أيضًا زيادة فى كرامته، وقد جاء فى سياق المشهدين من السورتين إضافة اليوم إلى الوقت المعلوم؛ لأن إبليس -لعنه الله- قد حاول الفرار من ذائقة الموت، فتحايل على الله -تعالى- بأن يمهله إلى قيام البعث بعد الفناء: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر٣٦-٣٨].

وهى نفس الآيات الواردة فى سورة ص من [٧٨-٨١] فأمهله الله ولكن إلى الوقت المعلوم وهو قيام الساعة بالنفخ فى الصور النفخة الأولى، فإضافة اليوم إلى الوقت المعلوم عند الله وحده بوقته المعلوم عند الخلق باسمه وفعله، فيه من الإبهام

---

(١) الكرمانى _ البرهان فى توجيه متشابه القرآن_تحقيق عبد القادر عطا _ط١_ دار الكتب العلمية_ بيروت_ ١٩٨٦_ صـ١٠٨.

(٢) ابن جماعة _كشف المعانى فى المتشابه المثانى_ تحقيق مرزوق إبراهيم _ط١_دار الشريف_ السعودية _ ١٤٢٠هـ_ صـ٢٢٩.

المؤدي إلى التهويل وتربية الحذر فى نفس بترقبه، وهى إضافة أفادت تحديد الأنظار ونهاية المهلة.

وكما جاءت الإضافة "يوم الدين" فى الحديث عن المصدقين والمؤمنين كالموضوعين الأسبقين فى سورتي الشعراء والمعارج، جاءت تلك الإضافة أيضًا فى الحديث عن المكذبين بالجزاء وإقامة العدل كما فى قوله: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات١٢] لأنه سؤال شك وتكذيب، فجاءت الإضافة إلى: " الدين" لأنهم كذبوا بالتداين والمداينة أصلاً، وأنكروا أن يكون هناك موقف للجزاء على الخير أو الشر، لذلك فقد أطلقوا لأنفسهم العنان فى فعل كل قبيح، وهذا ما دعاهم إلى الاعتراف بهذا التكذيب الذى أدى بهم إلى سفر: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين١٠-١١] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الإنفطار٩-١٨]

فإضافة اليوم إلى: "الدين" إضافة ترسم هذا التكذيب بالجزاء، للثواب والعقاب، لأنه فى النهاية تكذيب بوجود الجنة والنار، بل تكذيب بوجود ذلك اليوم من أصله، وجاء التكرار للآية الكريمة المصدرة للسؤال "معبِّرًا" بأداة التراخي زيادة فى التحويل: "ثم ما أدراك" أي: كذلك "ما يوم الدين"، فقال مبدلا من "يوم الدين" فى قراءة ابن كثير والبصريين بالرفع " يومُ" وهو ظرف، قال الكسائى: العرب تؤثر الرفع إذا أضافوا الليل واليوم إلى مستقبل، وإذا أضافوا إلى فعل ماض آثروا النصب[1]، وربما جاء المشهد الواحد مقترنًا بإضافة اليوم إلى: (الدين) ثم إضافة

---

(١) البقاعى_ نظم الدرر_(٣٥٢/٨).

اليوم إلى: (الفصل) كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات١٩-٢١].

وهاتان الإضافتان قد جاءتا فى سياق زاخر بالأساليب البلاغية التى ساهمت فى إبراز مشهد الهول المجسَّد فى مشهد الندم فبدأت الآيات ب: (إنما) موضوعة " على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو بما ينزل هذه المنزلة [١].

وقد تقدم أن الخطاب للنبي -أو للإنسان- فى قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات١٢].

وجاء الجمع المتلاحق بين الضمير: (هى) والاسم الظاهر (زجرة واحدة) لمزيد من إظهار هول الزجرة وتجسيد ما تبثه من فزع وما ترسمه من مشهد حركى لحدث الزجرة والوصف ب: (واحدة) تأكيد لما تفيده صيغة الفعلة من معنى المرة؛ لدفع توهم أن يكون المراد من الصيحة الجنس دون الوجود ودل فاء التفريع على تعقيب المفاجأة، ودل حرف المفاجأة على سرعة حصول ذلك[٢].

والإضافة إلى: (الدين) ثم الإضافة إلى: (الفصل) تجسيد تكذيبهم بالجزاء فى الدنيا، وتجسيد لمشهد حسرتهم وندمهم عندما واجهوا مصيرهم رأى عين فى آخرتهم، وقد جاءت الكلمات مجسدة لهذه المعانى راسمة لهذا الانفعال النفسى والمعترك الداخلى (وقالوا) فتعلو أصواتهم وحواراتهم بلفظ: يا ويلنا) وتكرار اسم الإشارة (هذا) لتجسيد المشهد باستحضار صورة المشار إليه بهوله وفزعه.

وقد جاءت إضافة اليوم إلى: (الفصل) فى ثلاث سور أخرى غير السورة السابقة هى الدخان قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا

---

(١) عبد القاهر الجرجانى_ دلائل الإعجاز_ تحقيق محمود شاكر_ ط٣_ مطبعة المدنى _مصر/جدة_ ١٩٩٢_ صـ٣٣٠.

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/١٠٠).

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان ٤٠-٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات ١١-١٥] وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات ٣٧-٣٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ ١٧-١٨] فالفصل: القضاء بين الحق والباطل، وذكر الزجاج: أن الفاصل صفة من صفات الله -عز وجل- بفصل القضاء بين الخلق، وقوله -عز وجل- هذا يوم الفصل، أي: هذا يوم يفصل فيه بين المحسن والمسيء[١].

فالفصل: القطع بالحكم والقضاء؛ لأنه فرق بين الحق والباطل بعد أن كانا ملتبسين فى نفوس المنكرين؛ لذلك فقد وردت هذه الإضافة؛ قصدًا للتهويل بإبراز جزء معين من مشاهد القيامة، وهذا الجزء هو مشهد الحكم والفصل؛ ولذلك فقد وردت هذه الإضافة فى سياق الحديث عن المكذبين والحكم والفصل بينهم وبين من كذبوهم من رسلهم؛ فكان إيثار التعبير عن ذلك الموقف ومشهد هذا اليوم بيوم الفصل " لإثبات شيئين؛ أحدهما: أنه بَيَّنَ ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء، وذلك فصل بين الصدق وكذبهم، وثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اعتدى به بعضهم على بعض[٢].

وقد تنوعت الأساليب البلاغية الواردة فى سياق الآيات السابقة وتضافرت فى تركيب بديع لأجل إظهار مشهد الفصل فى صورة حسية حاضرة فى الأذهان، ماثلة للعيان، فجاء فى إضافة (يوم) إلى جملة: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان ٤١] لانتفاء هذا الغناء فلا يصدر من أحد ما لأحد ما على العموم والشمول -كما أفاد التنكير فى سياق النفي- فتتمثل صورة المثول والوقف الفردي

---

(١) ابن منظور_ لسان العرب_ ط١_ دار الكتب العلمية_ بيروت_١٩٩٣_مادة :فصل.

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠).

واضحة جلية، وفي المرسلات جاء الإبهام فى الاستفهام الموحى بالتهويل: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات١٢] ثم الإطناب بالتوضيح مع الإبهام السابق: (اليوم الفصل) ثم تعقبه بالإنشاء فى قوله تعالى: (وما أدراك ما يوم الفصل) وهو استفهام لسوق المزيد من التهويل مع ما فيه من العدول عن الضمير: (هو) الاسم الظاهر فلم يقل: وما أدراك ما هو؛ لدلالة السياق السابق عليه، وفى ذلك الاستحضار التصويرى من التهويل ما فيه .. ثم الخبر المفيد للوعيد والإنذار: (ويل يومئذ للمكذبين).

وقد يتجسم الموقف المكتظ بالأفواج المتموجة بحركة إتيانها فيضاف اليوم إلى فعل النفخ بمشهده الصوتى وجرسه القارع {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ١٨] وذلك بعد أن تقدم إضافة اليوم إلى الفصل.

وفى موضع آخر من القرآن الكريم جاءت إضافة الكلمة إلى الفصل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى٢١] وهي إضافة للتهويل وتربية الرهبة؛ لاستحضار المشهد الأخروي الذى تعلن فيه الكلمة الفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل، وفى سياق الإضافة التهويلة لتصوير مشاهد القيامة جاءت إضافة اليوم إلى كلمات أخرى كثيرة؛ لتسلط الضوء على جزء من أجزاء هذا اليوم؛ لتتكامل أجزاء المشهد فى لوحة كبيرة متناسقة الأجزاء جامعة المواقف، فقد تأتى الإضافة لتجسيد مشهد الحسرة والندامة وما يصاحبه من انفعال نفسى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم٣٩] ويوم الحسرة هو يوم القيامة "أضيف اليوم إلى الحسرة؛ لكثرة ما يحدث فيه من تحسر المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة، فكان ذلك اليوم مما اختصت به "الحسرة" على هذا الوجه لام العهد الذهني، ويجوز أن تكون اللام عوضًا عن المضاف إليه، أي: يوم حسرة الظالمين[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠٨/١٦).

وقد يضاف اليوم إلى: (البعث) لما فيه من بث التخويف لساعة الحياة والبعث بعد الموت والفناء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم٥٦] فذكر اللبث المتقدم يوحى بمشهد البعث وبعد الموت، وحرف: (إلى) رسم الغاية ونهاية اللبث وبداية البعث، وزاد من هول المشهد تكرار الإضافة بالإشارة إليه ب: (فهذا) لاستحضاره المشهد بصورته الحية أمام الأعين.

ويضاف اليوم إلى (التلاق) فى قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر١٥] فيستحضر القلب والذهن مشهد التجمع واللقاء، وسماه: "يوم التلاق"؛ لأنه يلتقى فيه الخالق والمخلوق بعضهم مع بعض والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم[١]".

وقد تأتى الإضافة المفيدة للتهويل والتخويف فى موضع آخر لإبراز مشهد آخر من أجزاء المشهد الكبير لذلك اليوم الآخر كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن٩] فمنشأ الهول هنا يأتى من التصوير البديع الذى رسمته الإضافة لكلمة الجمع للأولين والآخرين فى موقف عظيم، ثم رسم مشهد التغابن الذى تتجسد فيه خسارة الكافرين والإتيان باسم الإشارة: (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) فى مقام الضمير؛ لقصد الاهتمام بهذا اليوم بتمييزه أكمل تمييز على ما يفيده اسم الإشارة البعيد من علوّ المرتبة، فليست مادة التغابن فى قوله: (يَوْمُ التَّغَابُنِ) مستعملة فى حقيقتها؛ إذ لا تعارض حتى يكون فيه غبن، بل هو مستعمل فى معنى الخسران على وجه المجاز المرسل[٢].

---

(١) تفسير السعدى صـ١٠٧.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/٢٧٥،٢٧٦).

وقد يضاف اليوم إلى الحساب؛ لأنه موجب للثواب أو العقاب، النعيم أو العذاب، وهو يصور العرض للحساب على الله عز وجل[١]، ولذلك جاءت هذه الإضافة لما استعجله الكافرون من وقوع العذاب الذى استخفوا به وأنكروا فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص١٦] وهى الإضافة نفسها التى جاءت فى معرض الحديث عن العذاب الواقع للذين يضلون عن سبيل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص٢٦].

وفى معرض الحديث عن الجنة ونعيمها قال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص٤٩-٥٤] فإضافة يوم إلى الحساب فى هذا المقام وتكرار الإشارة ب: (هذا) يظهر غرض التعظيم وتفخيم الشأن وبث جو الطمأنينة والسكينة المصحوبة بالفرحة وذلك على النقيض من مشهد الإضافة السابقة، وقد تأتى الإضافة لتصوير المشهد الصوتى الذى يبرز فيه الخلق إثر النداء عليهم: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر ٣٢-٣٣].

ويتغاير الأسلوب فى النداء ونسبته للمنادى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق ٤١-٤٢] فالإضافة إلى: (التَّنَاد) والإضافة إلى جملة النداء: (يُنَادِ الْمُنَادِ) بما فيها من تلاحق حروف الصوت الندائى وتكرارها يبعث على جو الهول الصوتى وشدته؛ فيجتمع الخلق على أثره ويخرجون لملاقاته، (ذَلِكَ

---

(٣) الدامغانى _ الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز_ تحقيق عربى عبد الحميد_ط١_دار الكتب العلمية_ بيروت_٢٠٠٣_ صـ١٧١.

يَوْمُ الْخُرُوجِ) فما من مخلوق إلا ويخرج من مرقده فما ينظر أحد هنا أو هناك إلا يروى خروجًا من كل مكان قد تفجرت الأرض بالخروج كما كانت تتفجر بالماء فى دنياهم وقد أدى تكرار: (يوم) فى مشهد السورتين إلى إبراز جو الرهبة والهول لتداخل المشهد الصوتي مع المشهد الحركي الكثيف وهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج٤٢-٤٣] وهذه الإضافة المجسدة للحركة المستفادة من إضافة: (يوم) ل: (الخروج) وجملة (يخرجون) ومشهد الجمع بحركته السريعة فى إضافة: (يوم) ل: (الجمع) كما مرَّ فى سورة التغابن قد جاءت فى مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم؛ لتجسيد مشهد الحركة بهولها وسرعتها، وهى إضافة تجسد مشهد القيام وحركته، وتوحى باستحضاره وتمثله، إنه مشهد القيامة بإضافة: (يوم) إلى: (القيامة) وهى كثيرة جدا فى آيات القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة١١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة١٧٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران٥٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران٧٧].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل٢٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء٩٧].

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج١٧].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج٦٩].

وإضافة اليوم للقيامة لم تأت كلها فى مشاهد العذاب؛ بل منها ما جاء فى معرض الحديث عن الحكم وفصل القضاء بين العباد كما فى الآيتين: (١٧) و (٦٩) من سورة الحج، وقد تأتى تلك الإضافة لبث السكينة والطمأنينة فى معرض الحديث عن جزاء المؤمنين المخلصين كما جاء فى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف٣٢].

وقد تأتى الإضافة فى تصوير مشهد القيامة بغير ما سبق ودون إضافة يوم إلى اسم من أسمائها كما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج١-٢]

فأضاف الزلزلة إلى (الساعة) وهى اسم من أسمائها؛ للدلالة على شدة وقوعها وكأنه فى هذه الساعة، وقد صُدّرت الآية بالخطاب العام لكل الناس؛ لأنهم جميعًا مدعوون للتقوى: (يأيها الناس اتقوا ربكم) ولذلك لم يأت الخطاب الخاص بـ: (يأيها الذين آمنوا)؛ لأنه ليس فى مقام التشريع والتكليف بصلاة أو صيام وغير ذلك، فإضافة (الزلزلة) إلى: (الساعة) تصوير حركى لعنف الرجة والرجفة المختلطة بالسرعة الهائلة (الساعة)، وزاد من ذلك التصوير تنكير (شيء) ووصفه ب: (عظيم) مما يزيد من إبراز مشهد الهول وفزعه، وهذا الهول والفزع على ما فيه، إنما جاء على سبيل الإجمال المفصل بالمشاهد الأخرى التي أتت فى الآية الثانية مخاطبة حاسة العين والإبصار بإضافة يوم إلى جملة: (ترونها) فتبرز مشاهد ذهول المرضعة عن رضيعها، ووضع الحامل حملها، وظهور الناس سكارى وليسوا كذلك؛ فهذه المشاهد تتلاحق فى قوة وسرعة خاطفة، ويبدو عنفها فى هذا الانتقال السريع من مشهد إلى مشهد مؤديًا إلى تغاير الحدث وفعله من: (تذهل) إلى: (وتضع) إلى: (وترى)، وقوله تعالى: (مرضعة) لأن مرضع: إذا أراد ذات رضاع، ولم يجرها على: (أرضعت) ولا: (ترضع) فإذا أراد ذلك قال: (مرضعة) [(١)]، فقوله تعالى: (تذهل كل مرضعة) فيه زيادة لتصوير الهول وشدته، حتى ذهلت المرأة التى ترضع وليدها وتلقمه ثديها وتضمه إلى صدرها، والذهول: الغفلة عن

---

(١) سيبويه_ الكتاب_ تحقيق : د.إميل يعقوب_ط١_ دار الكتب العلمية_ بيروت_١٩٩٩_ (٤٢٣/٣).

الشئ بطروء ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره، قال ابن زيد: المعنى: تترك ولدها للكرب الذى نزل بها [١].

وجاءت الإضافة لكلمة: (الغاشية) لتصوير جزءٍ آخر من مشاهد الآخرة وتبرز فى صورة حسية قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية ١] فالإضافة هنا تصور هذا الحدث فى صورة حسية تثير الفزع بما تلقيه فى النفس من تمثل هذا الحدث وكأنه قميص يلبس، فالغشاءُ: الغطاء، غشيت الشيء تغشية أي: غطيته، وعلى بصره وقلبه غَشْوٌ وغشوة وغشاوة، أي: غطاء، قيل: الغاشية: القيامة؛ لأنها تغشى الخلق بأفزاعها، وقيل: الغاشية: النار؛ لأنها تغشى وجوه الكفار، وغشاء كل شيء: ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرْج والرحل والسيف ونحوها [٢].

وفى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة ١] أضيف: (الزلزلة) إلى الضمير، وذلك أبلغ من قوله: (زلزالا) دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قلَّ، وإذا أضيف إليها وجب أن يكون على قدر ما يستحقه ويستوحيه جِرْمها وعِظمها[٣].

وقد تضافر البناء التركيبى للمشهد فى إبراز هول الموقف، ويظهر فيه نوع آخر من الهول والفزع الناتج من بناء الفعل للمجهول؛ فهى زلزلة لا ترى بحاسة العين إلا مفاجأة انقلاب نواميس الحياة من كل جهة، وقد زاد من إيحاءات المشهد تكرار كلمة: (الزلزلة) وتكرار الأحرف فى الكلمة؛ حتى كأن الأرض تكرر حركاتها فى عنف وسرعة متلاحقة "ففى الآيات تصويرٌ حيٌّ لحال الأرض حين ترجّ رجًّا شديدًا وتزلزل بما فيها من جبال وأناسيّ، وتلفظ ما فى جوفها من الدفائن،

---

(١) ابن عطية _المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز_ تحقيق : عبد الله الأنصارى والسيد إبراهيم _ط٢_دار الكتب العربى _القاهرة_(٢٢٣/١٠).

(٢) لسان العرب_مادة (غشا).

(٣) المحرر الوجيز_(٥٣٤/١٥).

وهى ترسم فى الذهن زلزلة الأرض واضطرابها الشامل، كما ترسم لنا ذلك الاضطراب الذى يعترى الإنسان فيشعر بالأرض تهتز تحته وتضطرب[1]".

التعريف بالإضافة في مشاهد الجنة

تزخر مشاهد الجنة والحديث عن نعيمها بالأساليب البلاغية الفياضة التى تحرك النفس والهمة، وترقى بالروح عالية صافية؛ لأنها نقلت المتلقى من حال السماع إلى المشاهدة الحاضرة كأنها رأى عين، وكان التعريف بالإضافة من الأساليب البلاغية التى قامت بدورها التصويرى في إبراز هذه المشاهد فى صور حية تنتقل بنا عبر معانيها ونعيمها ومن مواضع هذه الإضافة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة٦٥] قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس٩] قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الحج٥٦] قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء٨٥] قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان٨] قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات٤٣] قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة١٢-١٣] قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم٣٤].

فهذه هى المواضع التى جاءت منها كلمة: (جنات) مضافة إلى: (النعيم)، وكلها جاءت فيها كلمة: (جنات) بالجمع لإفادة الشمول إلا موضعًا واحدًا فى الشعراء والآخر فى المعارج جاءت فيه كلمة جنة مفردة ولعل ذلك -والله تعالى أعلم- أنه فى سياق مختلف عن السياقات الأخرى التى جاءت، وهى تدل على أحوال النعيم المتناهية فى العظمة، وهى كلمة جامعة تدل على الحالة التى تنطوى عليها الجنات،

---

(١) د.حامد صادق _المشاهد فى القرآن الكريم _ دراسة تحليلية وصفية _ ط١_مكتبة المنار_ الأردن_ ١٩٨٤_ صـ١٦٠.

فقوله تعالى: (فى جنات النعيم) أضافها الله إلى النعيم؛ لاشتمالها على النعيم التام نعيم القلب بالفرح والسرور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاغتباط برضاه ولقاء الأحبة، ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد أو قدر أن يصفه الواصفون[١] أما الموضع الآخر فلم يشتمل على شيء من ذلك، فقد جاء فى سياق دعاء إبراهيم -عليه السلام- بأن يكون من أهل الجنة، والإنسان عندما يدخل الجنة إنما يسكن فى جنة من جناتها الثمانية.

والفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وجاءت معرفة بأل دون الإضافة فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون ١٠-١١] وجاءت مضافة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الكهف١٠٧] فضلاً عن غرض التفخيم، والتعظيم المستفاد من الإضافة، ففيها معنى الشمول المستفاد من جمع: (جنات) وهذا محتمل لإرادة كل درجات الجنة ومنازلها فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوى على الكرم أو الأشجار الملتفة وهذا صادق على جميع الجنة[٢].

وقد تضاف الجنة إلى الخلد -وهي الإضافة الوحيدة في القرآن- لإظهار غرض التعظيم الناشئ من الخلود الأبدى الذى لا فناء بعده ولا زوال، ولعل إيثار الإضافة إلى: (الخلد) هنا؛ لأن السياق المتقدم يحمل حديثًا عن المكذبين والمعاندين الذين آثروا الحياة الدنيا الفانية على الباقية الخالدة .. وقد جاءت الإضافة فى سياق الاستفهام عن المفاضلة بينه وبين ما وعده المتقون؛ تنبيهًا على أنه أعلى مرتبة من

---

(١) تفسير السعدى صـ٣٣٦.

(٢) تفسير السعدى صـ٤٦١.

الممكن فإن واقع لا محالة وتهكما بهم؛ فقال تعالى: "قل أذلك" أيَ: الأمر العظيم الهول الذى أوعدتموه من السعير الموصوفة [١].

وقد تضاف: (جنات) إلى: (المأوى) وذلك في موضوعين اثنين من القرآن الكريم؛ أحدهما بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة١٩].

فإضافة التعظيم ناشئة هنا من صفة الملاذ والإيواء التى يتمتع بها النازلون بها؛ وهو تصوير للجنة فى حالتها من صفة الملاذ والإيواء التي يتمتع بها النازلون، وقيل: سميت بذلك؛ لما روى عن ابن عباس قال: يأوى إليها أرواح الشهداء، وقيل: هى عن يمين العرش[٢]، وقال البقاعى: " أي: الجنات المختصة دون الدنيا التى هى دار ممر دون النار التى هي دار مفر لا مفر، بتأهلها للمأوى الكامل فى هذا الوصف بما أشار إليه ب: "ال" ثابتون فيها لايبغون عنها حولا[٣].

وقد عُدِلَ عن هذه الإضافة التفخيمية بهذه المعانى الموحية إلى أسلوب آخر وإضافة أخرى، وذلك فى الحديث عن الفاسقين وجزائهم فى الآية التى تلت الآية السابقة" ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة٢٠]

فلم يقل جل شأنه: (نار المأوى) على غرار ما سبق وإنما قال: " فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ " وقال: " ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ"، فنسب المأوى إليهم "فمأواهم"؛ ليبرز جحيم النار وتلبسها بهم، فقد أصبحوا نارًا فى نار، وفى ذلك تصوير لشدة العذاب -والله تعالى

---

(١) البقاعى _نظم الدرر_٣٠٣/٥.

(٢) أبو حيان_ البحر المحيط_ تحقيق د.عبد الرازق المهدى _ ط١_ دار إحياء التراث العربي _ بيروت _٢٠٠٢_ ٢٦٧/٧.

(٣) البقاعى _نظم الدرر_(٥٩/٦).

أعلم- فقد يكون استخدام كلمة المأوى فى مشهد العذاب من باب السخرية بأهل النار والاستهزاء والتهكم بهم.

والموضع الآخر فى قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم١٤-١٥] وقد جاءت هنا بصيغة المفرد؛ لأن المراد -والله أعلم- الجنة الجامعة لكل نعيم؛ بحيث كانت محلاً تنتمى إليه الأمانى، وترغب فيه الإرادات، وتأوى إليها الرغبات[١].

وقال ابن عاشور: إضافة (جنات) إلى (المأوى) من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لقصد التخفيف وهي واقعة في الكلام، وقد تأتي كلمة (المأوى) دون إضافة للإخبار كما فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات٣٧-٤١] فالتعريف للعهد؛ وهو تعريف مُغن عن ذكر ما يضاف إليه "مأوى" (مقام ربه) مجاز عن الجلالة والمهابة، وأصل المقام كان القيام فكان أصله مكان ما يضاف هو إليه ثم شاع إطلاقه على نفس ما يضاف إليه على طريقة الكناية بتعظيم المكان من تعظيم صاحبه[٢]

وقد تأتى الإضافة التفخيمية فى الحديث عن الجنة بالإضافة إلى (عدن) وذلك لبيان مزية خاصة وفضل دائم .. فمصدر التعظيم والتفخيم فى هذه الإضافة يأتى من كلمة: (عدن) التى تعنى الإقامة الأبدية الدائمة؛ فلا تحول عنها ولا زوال، وهذا من شأنه أن يبعث السكينة فى النفس والطمأنينة فى القلب إذا علم النازل بها أنه مقيم بلا رحيل، وهذه الإضافة قد تأتى للإخبار والبيان دون تفصيل نحو قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة ٧٢] وقد تأتى هذه الإضافة

---

(١) تفسير السعدى صـ٧٨٤.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٩٣).

فى سياق آخر مفسرة وبالإبدال نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد ٢٢-٢٣] وفى هذا إطناب لبيان مشهد من مشاهد النعيم والجزاء الطيب؛ فجاء بالتوضيح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال؛ فظهر أن (عقبى الدار) هي (جنات عدن)، وقد تأتى الإضافة فى سياق هذا الأسلوب البلاغى -أيضًا- كما فى قوله تعالى : ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص٤٩-٥٤].

وقد زاد المشهد هنا تصويرًا حيًّا ماثلاً للعيان مجئ الإضافة (جنات عدن) محاطة بالتفصيل والتوضيح من بعدها، وهو ما نراه جليًّا فى وصف (جنات عدن) ب (دار المقامة) أي: الإقامة الأبدية، وذلك فى قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر ٣٣-٣٥].

وقد تضاف الجنة بلفظ (دار) إلى (السلام) وذلك فى موضعين اثنين من القرآن؛ لإظهار السلامة فيها، فهى سلام، ومن دخلها نجا وسلم وهو اسم من أسماء الله تعالى، وسمى الله الجنة (دار السلام) لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه وحسنه من كل وجه[1]، وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ

---

(١) تفسير السعدى صـ٣٣٩.

كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٢٥-١٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس ٢٥] وسمى الله تعالى الطرق التى تؤدى إلى دار السلام سبل السلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة١٦].

وجمع السبل؛ لتعدد سبيل فعل الخير والطاعة؛ ليكون فى مواجهة سبل فعل الشر والمعصية التى جاءت بالجمع أيضًا فى كتاب الله يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٣] أما الصراط فما جاءت فى القرآن الكريم إلا مفردة لتفرد طريق الحق المقصود بالصراط الذى يرتبط بدوره ب (دار السلام) و (سبل السلام)، ولعل ذلك يفسر مجيئها فى سياق الحديث عن الصراط المستقيم.

والحديث عن الجنة حديث فياض فاضت به آيات القرآن الكريم؛ لتصوير أحوالها ونعيمها وأوصافها بما أذن الله به للإعلان عنها، وقد نالت الإضافة شرفًا عظيمًا فى إبراز هذه المعاني وتصويرها فى تغاير أسلوبى بديعى، تنقل بها عبر صفاتها وأسمائها ومعانيها فرسمت لنا صورة متكاملة الأجزاء متناسقة المشاهد لما جاء فى آيات الذكر الحكيم؛ وقد أدت الإضافة أيضًا تصويرًا بديعًا فى وصف أهل الجنة ورسم شخصياتهم، فتارة يضافون بكلمة (أصحاب) إلى (الجنة) وتارة يضافون إلى (اليمين) أو (الميمنة) فأصحاب فيها معنى الصحبة والمصاحبة والملازمة، والجنة اسم جامع لها ونعيمها -كما مر سابقًا- أما تغاير الأسلوب من (الميمنة) إلى (اليمين) فقد اعتبره ابن عاشور للتفنن[1]، وقد يكون من المناسب ألا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٩٨).

يقتصر غرض الإضافة على هذا التفنن فقط، فقد يكون هذا التنوع الأسلوب؛ لإبراز مشاهد متغايرة كأخذ الكتاب باليمين مثلاً، أو إبراز مشهدهم وهم وهم فى جهة اليمين؛ لذا قال: (وأصحاب اليمين) أما إضافة: (أصحاب) إلى: (الميمنة) فربما تكون لتجسيد مشهد أخذ الملائكة لهم؛ ليذهبوا بهم إلى اليمين إلى الجنة، قال القرطبي -رحمه الله-: أصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، قاله السُّدى، وقال المبرد: (أصحاب الميمنة): أصحاب التقدم، (وأصحاب المشأمة): أصحاب التأخر، والتكرير فى: (ما أصحاب الميمنة) و (ما أصحاب المشأمة) للتفخيم والتعجيب، كقوله: (الحاقة ما الحاقة) و (القارعة ما القارعة) (١).

هذا وقد جاء التركيب الإضافى فى مواضع كثيرة؛ بإضافة (أصحاب) إلى (الجنة) كما فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف٤٤] قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس٢٦] قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود٢٣] قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر٣٨-٣٩].

بلاغة التعريف بالإضافة فى مشاهد النار

جاءت التراكيب الإضافية فى مشاهد النار فى مواضع كثيرة من آيات القرآن الكريم فأضيف (أصحاب) إلى (النار) وإلى (المشأمة) وإلى (الشمال) على غرار ما مرَّ من إضافة (أصحاب) إلى (الجنة) وإلى (الميمنة) وإلى (اليمين) لتبرز المشاهد

---

(١) القرطبي_الجامع لأحكام القرآن_تحقيق د. محمد الحفناوي_ط١_دار الحديث_القاهرة_١٩٩٤_(١٧ -١٩١).

المتقابلة فى وضوح وقوة وجلاء وتتجلى مواقف الفريقين فى مشاهد حية مشخصة فى ذهن القارئ والسامع.

وقد جاءت كلمة (أصحاب) مضافة لغير ما سبق؛ فتغيّر المواقف يتبعه تغيّر الأساليب واستدعاء الألفاظ اللازمة لإبراز معانى المشهد وجزئياته، "فالألفاظ إمَّا أن تدل بمنطوقها أو بفجواها أو بمفهومها، أو باقتضائها وضرورتها، أو بمعقولها المستنبط منها، قلت: فالأول دلالة المنطوق، والثانى دلالة المفهوم، والثالث دلالة الاقتضاء، والرابع دلالة الإشارة[١].

فجاءت كلمة (أصحاب) مضافة إلى (الجحيم) كما فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة١٠] وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة٨٦] أصحاب الجحيم ملازموه، والجحيم جهنم، وأصل الجحيم: النار العظيمة تجعل فى حفرة ليدوم لهيبها، يقال: نار جحمة، أي: شديدة اللهب، قال بعض الطائيين من الجاهلية من شعراء الحماسة:

نَحْنُ حبَسْنَا بَنِي جَديلة فِي ... نَارٍ مِنَ الحَربِ جَحْمَةِ الضَّرِمِ

وقد تضاف كلمة (أصحاب) إلى (السعير) لإبراز غرض التهويل الناشئ من استعارها كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر٦] وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك١١].

فالإضافة تبرز هول المشهد الاستعارى للنار التي "أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل[٢]، فكان أهلها فى صحبتها وملازمتها فلا ينفكون

---

(١) السيوطي_معترك الأقران فى إعجاز القرآن_تحقيق أحمد شمس الدين_ط١_دار الكتب العلمية_بيروت_١٩٨٨_(١/١٧٢).

(٢) تفسير السعدى_صـ٨٧٢.

عنها، ولا تنفك عنهم كما يلازم الصاحب صاحبه.

وقد جاءت الإضافة إلى (السعير) سواء بكلمة (أصحاب) أو بكلمة (عذاب) فى سياق الوعيد والإنذار للشياطين ومردة الجن وحزبهم المتبعين لهم من الإنس وجاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج٤] قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان٢١]

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ١٢]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر٦] قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك٥] وقد جاءت تلك الإضافة (أصحاب السعير) فى موضع آخر من سورة الملك مسبوقة بإضافة (عذاب) إلى (السعير – جهنم) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك٥-١١]

وهى تبرز الحوار المستعر بالحسرة والندم فى النار المستعرة فى أجسادهم؛ فالمشهد يلتهب بالسعير والعذاب والصوت الصاخب للشهيق والفوران؛ مما يملأ النفس فزعًا وهولاً، وقبل ذلك يتجلى مشهد الرجم للشياطين فى الدنيا، (ولعل مناسبة ذكر هذا الذى أعده الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولاً ثم

ما يجيء بعد من ذكر الذين كفروا) [١].

وقد يُعدل عن تلك الإضافة إلى تركيب إضافى آخر تضاف فيه كلمة (عـذاب) إلى (النار) باسمها الجامع الدال على كل أنواع العذاب ودرجاتها كما دلّ على ذلك (ال) الجنسية، ومن مواضعها التى أدت إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة١٢٦] فهنا مقابلة بين أهل الإيمـان (من آمن) وأهل الكفر (ومن كفر) فجاءت الإضافة للوعيد والإنذار بصـفة النـار الشاملة الجامعة، وهو ما جاء فى موضع آخر دالاً على الدعاء والتضرع للنجاة من (عذاب النار) بكل أصنافه ودرجاته وأحوالها وذلك فى قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة٢٠١] وقوله تعـالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران١٦] وقوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران١٩١]

فليس الدعاء للنجاة من نارٍ دون نارٍ أو عذابٍ فيها بعينه، وإنما الدعاء يشـمل جنسها، وهى الجنسية الواردة فى مقام الوعيد والإنذار المستفاد من الإضافة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود١٠٣].

وقد تأتى إضافة كلمة (عذاب) إلى وصف أو اسم آخر؛ ليدل على نوع محـدد من العذاب، ومن ذلك ما جاء فى وصف مشهد طعام أهل النـار، يقـول تعـالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات٦٢-٦٤]

---

(١)سيد قطب _ فى ظلال القرآن_ ط١٠_ دار الشروق_ بيروت_ القاهرة_ ١٩٨٢_(٦/٣٦٣٤).

فأضاف (شجرة) إلى (الزقوم) عياذًا بالله فى سياق الاستفهام المصاحب لاسم الإشارة (أذلك) أي إشارة إلى المذكور سابقًا من جزاء المؤمنين ونعيمهم، وجيء باسم الإشارة مفردًا بتأويل المذكور بعلامة بُعْد المشار إليه؛ لتعظيمه بالبعد، أي: بُعد المرتبة وسُمُوّها[١].

وإضافة الشجرة إلى (الزقوم) إضافة تبرز مرارة هذا الطعام وشؤمه، فترتسم الصورة المنفرة عن طريق حاسة التذوق فيفر منها من أراد النجاة، وقد ذكرت هذه الشجرة دون إضافة على سبيل الإجمال فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة ٥١-٥٢].

وقد نزلت قبل الصافات ففصَّل المولى -عز وجل- أوصافها هنا بهذه الآية -الصافات- وفى سورة الدخان بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٣-٤٩]

وقد سماها القرآن بهذه الإضافة كأنها مشتقة من الزُّقْمَة (بضم الزاي وسكون القاف) وهو اسم الطاعون[٢].

وقد جاء هذا المشهد زاخرًا بالإضافة المبينة لهول العذاب وصنوفه من الطعام، إلى صوت الغليان، إلى حركة الصَّب؛ (شجرة الزقوم - طعام الأثيم - كغلى الحميم - سواء الجحيم - عذاب الحميم) فجعل البطون كالقدر الذى يفور غليانًا بما فيه، وقد زاد من هول المشهد مجئ التشبيه (كغلى الحميم) بعد التشبيه (كالمهل يغلى)؛ ليكون تفصيلاً بعد إجمالٍ؛ جسَّد المشهد فى صورة مستمرة بالفعل المضارع (يغلى) ثم يتحول المشهد فى التفات بليغ من الغيبة إلى الخطاب (ذق إنك أنت العزيز

---

(١) التحرير والتنوير_(٢٣/١٢١).

(٢) نفسه (٢٣/١٢٢/١٢٣).

الكريم) على سبيل التبكيت والسخرية والتهكم "التهكم فى الصناعة عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة فى موضع النذارة، والوعد فى مكان الوعيد تهاونًا من القائل بالمقول له واستهزاء به[١].

وفى سورة التوبة جاء التركيب الإضافى بكلمة (نار) إلى (جهنم) يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة٣٤-٣٥] ف: (الذين) التعريف باسم موصول للذم والتحقير من شأن هؤلاء، والظرف: (يوم يحمى عليها ...) تفسير وتفصيل لما أُجمل وأُبهم قبله: (فبشرهم بعذاب أليم) وفى ذلك مزيد من إدخال الفزع والتهويل، وقوله: (فبشرهم) أن الأصل فى البشارة الخير المؤثر يظهر تأثيره فى بشرة الوجه بالسرور أو الكتابة، ولكن غلب فى الأول، ولذلك يحمل فى مثل هذا المقام على التهكم والمراد به الإنذار[٢].

وقد تضاف كلمة (عذاب) إلى لفظ الجلالة (الله) وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام٤٧]

فربما كانت الإضافة هنا بهذا التركيب؛ لأنها وردت فى سياق التهديد والوعيد للمعاندين فى الدنيا أي: "" أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله الذى مضت سنة فى الأولين، بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين مباغتًا ومفاجئًا لكم أو أتاكم ظاهرًا مجاهرًا [٣].

أو تضاف كلمة (نار) إلى لفظ الجلالة (الله) فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة٤-٧] وقد تضاف

---

(١) ابن أبى الأصبع المصري_ بديع القرآن_ تحقيق حفنى شرف_ نهضة مصر_ صـ٢٨٣.

(٢) رشيد رضا_تفسير المنار_شرح إبراهيم شمس الدين_ ط٢_دار الكتب العلمية_بيروت_٢٠٠٥_(٣٦٢/١٠).

(٣) نفسه (٣٤٤/٧).

كلمة (عذاب) إلى لفظ (رب): (عذاب ربك) قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء٥٧] فالإضافة هنا تشعر برعاية الله ولطفه فأضاف (عذاب) إلى (ربك) على سبيل الالتفات بكاف الخطاب لمخاطبة النبي، وهى قد وردت فى سياق المدح، أي: يبتغون القربة ويتوقعون (رحمته) تعالى ويخافون عذابه كدأب سائر العباد؛ فأين هم؟ – أي: الذين يسمونهم آلهة – من ملك كشف الضر فضلاً عن كونهم آلهة؟! (إن عذاب ربك كان محذورًا) حقيقًا بأن يحذروه والجملة تعليل لقوله سبحانه: (ويخافون عذابه) وفى تخصيصه بالتعليل زيادة تحذير للكفرة من العذاب، وتقديم الرجاء على الخوف لما أن متعلق أسبق من متعلقه[١].

وكذا الشأن –أيضًا– فى الموضع الآخر جاءت الإضافة فى سياق مدح المؤمنين؛ حيث يقول تعالى: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج٢٥-٢٨]

فالمشهد هنا زاخر بحركة النبذ والزجر (كلا لينبذن) وتكرار الحطمة فى سياق الاستفهام لمزيد من إبراز المشهد التهويلى "والتهديد يجيء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة بمثل صورة العذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية، وهى (نار الله الموقدة) وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة، وهى (تطلع) على فؤاده الذى ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور[٢].

والله –تعالى– هو الكبير الجبار المتكبر؛ لا يرضى من خلقه التعالى والكبر، ومن استكبر فى الأرض وعلا بنفسه وتعاظم كان مصيره الذل والهوان؛ لذلك جاءت إضافة (عذاب) إلى (الهون) فى ذلك الموضع، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

---

(١) الألوسي – روح المعاني – دار إحياء التراث العربي – بيروت – (١٥ / ١٠٠).

(٢) سيد قطب _ في ظلال القرآن _ (٦ / ٣٩٧٣).

الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام٩٣] وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف٢٠].

وإذا نظرنا إلى سياق آخر أضيف فيه (عذاب) إلى (الخلد) ليرسم معنى الخلود الأبدى إلى ما شاء الله؛ وكانت الإضافة إلى (الخلد) بصفة خاصة لأنها -والله أعلم- جاءت فى سياق الحديث عن شأن الخلود الدنيوى الذى اعتقده هؤلاء القوم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس٤٨] فجاء الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس٥٢] فكان هذا الهوان والعذاب جزاء (تجزون) فأصيبوا بالذلة والهوان في الآخرة؛ وهم الذين أرادوا الكبر والعزة الباطلة فى الدنيا، وجاءت إضافة (عذاب) إلى (الخزي) فى سياق الحديث عن الاستكبار فى الأرض -أيضًا- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت١٦] ولعل تلك الإضافة هنا بالخزى لأنها فى الحياة الدنيا، بينما فى السياق السابق كان الحديث عن (عذاب الهون) فى الآخرة فجاءت فى سياق (اليوم تجزون).

ولكن هذه إضافة اختلفت باختلاف السياق والأسلوب، فعندما جاء المشهد راسمًا لوحة الإذاقة الحسية أضيفت كلمة (عذاب) إلى (الحريق) مصحوبة بكلمة (ذوقوا) ليتمثل هذا المشهد الحسي بحيويته ويتجسد بآلامه ومعاناته قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران١٨١] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال٥٠]

هذا -والله أعلم بمراده- فإن "أمور الآخرة من عالم الغيب؛ فلا ندرك كنهها وصفاتها من الألفاظ المعبرة عنها، فمذهب السلف الحق الإيمان بالنصوص مع تفويض أمر الكنة والصفة إلى عالم الغيب سبحانه، والواجب علينا مع الإيمان بالنص العبرة المراد منه فى إصلاح النفس[١].

بلاغة التعريف بالإضافة في خطاب النبي

إن الأسلوب القرآنى ينفذ إلى النفس بجميل لفظه وبديع معناه، فيأخذ بالقلب ويأسر الذهن والخاطر بما يصوره من مشاهد حية؛ يستحضر فيها المعانى والشخوص، ويجلّى الهدف والاعتبار، فإن "الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى، فتصوره بألفاظ لتلقيه فى النفس؛ حتى إذا استكملت الجملة أركانها برز المعنى ظاهرًا فيه، المهم والأهم؛ فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه[٢].

والله تعالى قد كرَّم نبيَّه -فيما كرَّمه- بخطابه فى القرآن الكريم .. فنزلت الآيات تحمل التوجيه للنبى ﷺ للرد على المعاندين والكافرين أو المعانى العامة بلفظ (قل)، ونزلت الآيات تحمل المدح والثناء والتذكير بنعمة الله عليه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح١] فشرح الله له صدره نعمةً وتكريمًا، بينما توجه موسى -عليه السلام- بهذا الطلب فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه٢٥-٢٦] فأضاف ضمير المخاطب لكلمة (صدرك) فى سياق الفعل المضارع (نشرح) وسياق الاستفهام التقريرى المؤذن بإبراز نعمة الله وتكريمه؛ بينما أضاف ضمير المتكلم لكلمة (صدرى) - (لى أمرى) فى سياق فعل الطلب والدعاء (اشرح)..

---

(١) رشيد رضا_تفسير المنار_(١٠/٣٦٢).

(٢) د.أحمد بدوى_من بلاغة القرآن_دار نهضة مصر_القاهرة_صـ١٠٥.

ومن إضافات التكريم والتعظيم للنبى ﷺ إضافته بالضمير العائد على لفظ الجلالة -سبحانه- بواو العطف أو إضافته إلى لفظ الجلالة مباشرة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾ [التوبة٦١-٦٥] بدأت هذه الأيات الكريمة حاملة التشريف والتعظيم للنبى بالنبوة فقال تعالى: (منهم الذين يؤذون النبى) وهو تكريم وتشريف شرف به النبى فى القرآن الكريم كله، فلم يأت ذكره إلا بالنبى أو الرسول وهو لم يحدث لنبى ولا لرسول من قبله ﷺ، والتعبير بكلمة بالنبى فى هذا المقام هو من قبيل وضع المظهر مكان المضمر، فعُدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبى؛ للإيذان بشناعة قولهم، ولزيادة تنزيه النبى بالثناء عليه بوصف النبوءة؛ بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه[١].

ثم تجلى التكريم والتشريف فى التركيب الإضافى (قل أذن خير لكم) فالذى تولى الرد والدفاع عنه هو الله تعالى، وجاء الرد على تشبيههم الشنيع (هو أذن) بإضافة هذه الأذن إلى الخير العظيم المطلق كما دل التنوين "وهو من الأسلوب الحكيم الذى يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده تنبيهًا له على أنه الأولى بأن يراد[٢].

ثم تتوالى الإضافات التشريفية الدالة على التكريم والتفخيم فى إضافة رسول إلى لفظ الجلالة (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) وفى إظهار لفظ الجلالة (الله)

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤١/١٠).

(٢) نفسه (٢٤٢/١٠).

فى هذه الإضافة فى هذا السياق تحمل غرضًا آخر مع غرض التشريف والتعظيم، ألا وهو تهويل جرمهم المتمثل فى الإيذاء (يؤذون) وإظهار الوعيد والنكير.

ثم تأتى الإضافة التشريفية إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقوله: (من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم) وقوله: (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) .. فهذه الإضافات مع العطف بالواو تثير عاطفة الرغبة والحرص على إرضاء الله ورسوله، وأن رضا الله من رضا رسوله ﷺ وفيها -أيضًا- التبكيت والتوبيخ لهؤلاء الذين (يحلفون بالله لكم ليرضوكم).

وكذا الشأن أيضًا فى إضافة (من يحادد الله ورسوله) بما تثيره من عاطفة الخوف والفزع مما تحمله الإضافة من التهديد والوعيد، وقال: (يحادد) ولم يقل: (يحادّ)؛ لأنه وقع مجزومًا فجاز فيه الفك والإدغام، والفك أكثر وأشهر في القرآن، وهو لغة أهل الحجاز، وقد ورد الإدغام نحو قوله: (ومن يشاق الله) فى سورة الحشر فى قراءة جميع العشرة وهو لغة تميم[1].

وجاءت الإضافة فى قوله تعالى: (قل أبالله ورسوله كنتم تستهزءون) بالعطف -أيضًا- فى (آياته) وفى (رسوله) فى سياق الاستفهام الإنكارى التوبيخى؛ لترسم صورة الاستهزاء بقبحها وخزيها ماثلة أمام العين، وتتجلى إضافات التشريف والتعظيم فى مخاطبة الله تعالى- لنبيه ﷺ بكاف الخطاب، وقد جاءت فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام ١١٤-١١٧] قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/٢٤٦).

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود١٠٧-١٠٨] وقد يُعدل إلى الإضافة بياء المتكلم، وفيها مع التشريف إظهار العناية والرعاية، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء٨٥] وقد يُعدل إلى الإضافة بضمير الغائب فى سياق حدث وقع وانقضى، فنزلت الآيات تجبر خاطر النبى ﷺ وتسري عنه وتعاتب من ضايقه، يقول تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم ٤-٥].

ومن مواضع الإضافة إلى الضمير ذلك الذى أتت فيه الإضافة فى أعظم صورها وأجمل تشريفها، وذلك فى سياق القسم من المولى عز وجل، يقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء ٦٥] فقوله تعالى: (فلا وربك) أي: [1] فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر لا فى قوله: (لا يؤمنون) لأنها تزاد -أيضًا- فى الإثبات كقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد١] ومن ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر٧٢] الأظهر أنه قسم بحياة النبى ﷺ ، وقيل: لوط -عليه السلام- وهو أي (لعمرك) خبر لمبتدأ محذوف وجوبًا، وهو لغة فى العمر يختص بالقسم لإيثار الأخف فيه؛ لأنه كثير الدوران على ألسنتهم، روى عن ابن

---

(١) محي الدين شيخ زاده _حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى_ تحقيق محمد شاهين _ ط١_دار الكتب العلمية_ بيروت_١٩٩٩_(٣/٣٥٤).

عباس رضى الله عنه قال: ما خلق الله نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله -تعالى- أقسم بحياة أحد إلا بحياته[١].

وقد تأتى الإضافة التشريفية إلى الضمير للدلالة على التعظيم والمدح لصاحبة النبى الذى عاتبه ربه بشأنهم، في قول تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام٥٢] وذلك أن جماعة من المشركين استنكفوا الجلوس مع المستضعفين من الصحابة فى حضرة النبى ﷺ ، وطلبوا منه أن يطردهم فنهاه الله عن ذلك، وأنزل فى شأنهم قرآنًا يتلوليوم القيامة .. وجاء خطاب التحنن والمحبة (يدعون ربهم) ولم يقل: يدعون الله؛ لتتجلى مظاهر الرعاية والعناية، فهم (يدعون ربهم بالغداة والعشي) كناية عن الاستمرار، وهم يريدون (وجهه) فالضمير المضاف إلى الوجه يرسم هذه الإرادة فى أسمى معانى الإخلاص والمحبة لله، "لقد أثنى الله عليهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي، أي: يعبدونه ويصلون له ويذكرونه اليوم كله، وهم فى دعائهم وصلاتهم وعبادتهم مخلصون لله؛ يريدون وجهه وحده، ولا يريدون شيئًا من متاع الحياة الدنيا[٢].

وفى مقام العتاب جاءت إضافة (رب) إلى كاف الخطاب للنبى ﷺ ؛ لتحمل فى طيات العتاب خطاب التحنن والترحم وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف٢٣-٢٤] ووجه العتاب هنا جاء على نسيان النبى أن يقول: إن شاء الله على وَعْدٍ وَعَدَهُ.

---

(١) نفسه(٥/٢٢٨).

(٢) د.صلاح الخالدى _عتاب الرسول_ فى القرآن_ط١_ دار التعلم_ دمشق_ ٢٠٠٤_ صـ٣٧.

وفى مقام عتاب النبى بشأن أسرى بدر نزل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال٦٧-٦٨] فقوله تعالى: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) قد شابه عتابًا آخر فى قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة١١٣] فآية الأنفال (لنبيّ) بالتنكير المفيد للعموم والشمول؛ لأنها وردت فى سياق النفى، وهذه الجملة خبرية وليست خطابًا من الله لنبيه ﷺ ومعناها: لا يليق بأي نبيّ من الأنبياء أن يأخذ الأسرى من الكفار قبل أن يثخن فى الأرض -أي: يغلب الكفار- ولا يستقيم له فعل ذلك، فالأولى أن لا يفعله [١]، ثم يتوجه الخطاب والعتاب بعد ذلك للمؤمنين، فجاءت الإضافة (عرض الدنيا)؛ لتبين حقيقة شأن الدنيا وسرعة انقضائها، وهذا الخطاب عتاب من الله للمؤمنين .. وقال الله للمؤمنين وهذا من باب عتابه لهم، وإنكاره عليهم، وليس من باب إدانتهم والحكم عليهم[٢].

أما فى قوله تعالى: (للنبيّ) بالتعريف فى آية التوبة؛ فإنه خطاب مباشر لشخص النبى ﷺ والذين آمنوا معه على موقف الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على الشرك، (ولو كانوا أولي قربى) .. فهذا التركيب الإضافى (أولى قربى) يثير الذهن إلى حقيقة الإخلاص والتعلق بالله والتبرؤ من الشرك وأهله، وإن كان أهله أقرب الأقربين؛ فيتحقق بذلك التجرد الكامل لله تعالى، وزيادة: (ولو كانوا أولي قربى)؛ لمبالغة فى استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة، كما هو مفاد (لو) الوصلية، أي: فأولى إن لم يكونوا أولى قربى، وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف، وتمهيد لتعليم من اغتر بما حكاه القرآن من استغفار إبراهيم لأبيه[٣].

---

(١) نفسه صـ٤٧.

(٢) نفسه صـ٤٧،٤٨.

(٣) التحرير والتنوير (١١/٤٥).

ومن بديع التركيب الإضافى أن جاءت كلمة (نفس) مضافة إلى كاف الخطـاب الموجه للنبى فنرى تلك الإضافة، وقد تبوأت مكانًا رائقًا بين أخواتها من الكلمـات؛ لكى ترسم عمق الظلال النفسية والشعورية، وتهيئ الذهن؛ لتأمل بـواطن الـنفس وخلجات الحس، يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف٦] ويقول تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء٣].

فالبخع هو القتل، وإذا كانت (لعل) تأتى فى الأمور الممكنة فهى تصور مدى ما كان عليه النبى ﷺ من حالة نفسية حزينة على هؤلاء المعرضين؛ حتـى أشـرف على الهلاك همًّا وحزنًا، مما يدل على شدة حرصه عليهم فقوله تعالى: (فلعلك باخع نفسك) أي: "فتسبب عن قولهم هذا المباين جدًّا لما تريد لهم الموجب؛ لإعراضـهم عنك أنك تشفق أنت ومن يراك على تلك الحالة من أتباعك مـن أن تكـون قـاتلا (نفسك) من شدة الغم والوجد، وأشار إلى شدة تفرقهم وسرعة مفـارقتهم وعظـيم مباعدتهم بقوله تعالى: (على آثارهم) [(١)]

بلاغة التغريب بالإضافة فى القصة القرآنية

تمثل القصة فى القرآن الكريم عنصرًا بارزًا مهمًّا فى عرض الأحداث وإبراز العظات والعبر والأحكام، ولقد اتسعت القصة القرآنية لتصوير النمـاذج الإنسـانية المختلفة فى العالم الواحد كعالم الرسل والأنبياء الذين يشتركون فى النبوة والرسالة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فضلاً عن تفصـيلها لحيـاة الأمـم والأقـوام وخصائص المجتمعات الإنسانية عبر العصور[(٢)].

ولأن القصة القرآنية لم تأت على وتيرة واحدة أو نسق واحـد؛ فـإن أسـاليب العرض قد جاءت أيضًا متنوعة بتنوع الحدث واختلاف الغرض، فيقوم الأسـلوب البلاغى بما يحمله فى طياته من ألفاظ إلى التنبيه إلى الأحداث والوقائع، أو يساهم

---

(١) البقاعى _ نظم الدرر _(٤/٤٤٦).

(٢) د.فهد زايد _ أسرار القصة القرآنية_ ط١_ دار يافا العلمية _عمان_٢٠٠٧_ص٢٩.

فى وقع هذه الأحداث من حيث سرعة أدائها أو مفاجآت تحول وقائعها؛ لتضع القصة القارئ -فى مجمل الأمر- أمام أحداث مجسمة وأشخاص حاضرة ومشاهد حية زاخرة بالحركة والتجاوب الانفعالى والشعورى بين القصة وقارئها.

وقد أدى التركيب الإضافى دورًا بارزًا فى إبراز مشاهد القصة وتجلية معانيها، ففى قصة آدم -عليه السلام - يقول تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف١٩] فجاء النداء (ويا آدم) بينما جاء هذا النداء فى نفس القصة فى سورة البقرة بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة٣٥].

واعتبر الكرمانى أن السكن فى (اسكن) بمعنى: الإقامة، وذلك استدعى زمانًا ممتدًا فلم يصلح إلا بالواو؛ لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، والذى فى الأعراف من السكن: اتخاذ الموضع مسكنًا[1]، وكلا الموضعين بلفظ (اسكن) لرسم الحالة القلبية للإقامة فيها من السكن والراحة والطمأنينة، ثم جاء التعبير بالضمير المنفصل (أنت) والإضافة إلى كاف الخطاب فى (وزوجك) للتأكيد على عناصر المشهد البشرية وتتمثل أعضاؤه فى وضوح وجلاء.

ثم تندفع مجريات الأحداث فى تطور مفاجئ وسريع رسمته الفاء فى (فوسوس) والواو فى (وقال) وذلك فى قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف٢٠] وتتبدى ملامح القوة والظهور فى التضاد بين (ليبدى) و (ووارى) فالشيطان غايته فضح المستور وتعرية بنى آدم ظاهرًا وباطنًا، والفطرة البشرية التى أودعها الله هى الستر والمواراة لكل ما يسوء الإنسان ويستاء من ظهوره

---

(١) الكرمانى _البرهان فى توجيه متشابه القرآن _صـ٢٦.

والاطلاع عليه، ولذلك جاء الفعل بالبناء للمجهول (ووري) وأضاف السوأة إلى ضمير المثنى (سوآتهما)، فقد أفادت تلك الإضافة الخصوصية التى لا ينبغى لأحد الاطلاع عليها إلا الزوجين، ولذلك جمعت فى الضمير (هما) وتكررت فى هذا المشهد القصص أربع مرات، فقال جل شأنه: (ما ووري عنهما من سوآتهما) و (بدت لهما سوأتهما) و (لباسا يوارى سوآتهما) و (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) وهي في هذا المقام أبلغ في تصوير المعنى من كلمة (عورة) التي جاءت في قوله تعالى (ثلاث عورات لكم) [النور٥٨].

إنه اللباس الساتر من الله تعالى، وهى محاولات النزع للستر من الشيطان، فهو لا يألو جهدًا فى ذلك، بل يتفانى ويستميت، ولذلك جاء التعبير بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار (ينزع) ولم يقل مثلا: يرفع أو يزيل .. ثم يتواتر التعبير على لفت الانتباه إلى الترقى من الأدنى إلى الأعلى، فيُضرب عن (لباسا يوارى سوآتكم وريشًا) خطابًا لعموم بنى آدم، وينتمى إلى اللباس المعنوى الحقيقى فى الخير والتجمل، فقال مضيفًا لباس إلى الاسم الظاهر (التقوى) فى تصوير خيالى بديع يأخذ بالنفس ويجسد المعنى فى قوة وجلاء: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف٢٦] ولأن هذا اللباس قد بلغ الغاية العظمى والذروة العليا فى الزينة الحقيقية أشار باسم الإشارة الدال على البعد فى القدر والتعظيم والمكانة (ذلك خير) ثم كرره (ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون).

ومما هو جدير بالذكر أن الإضافة للضمير جاءت فى حوار الشياطين مع آدم وزوجه كما قال تعالى حكايةً: (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) فلم يقل: ما نهاكما الله؛ ولكن خطاب التفنن من الشيطان فى إدخال معانى الربوبية بما فيها من العناية والرعاية؛ ليكون ذلك أدعى للوصول إلى هدفه .. ولما كانت عناية الله ورحمته تشمل من زلت قدمه وضعفت نفسه فقد جاء العتاب فى سياق الاستفهام التوبيخى رقيقًا حانيًا فجاء بلفظ النداء ولفظ الربوبية المضاف إلى ضمير المثنى؛

ليثير مشاعر الرغبة فى الإنابة والتوبـــة: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف٢٢] وهو ما تحقق فى سرعة بالغة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف٢٣].

فهذا البناء التركيبى فى القرآن الكريم بناء أحكمت لبناته وانتظمت فى نسق بديع فصارت كل كلمة تؤدى معنى فى موضعها وتصوره تصويرًا حيًّا؛ فـــلا تســـتطيع كلمة أخرى أن تقوم بمقامها أو تؤدى أداءها لو أبدلت مكانها، فهو: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود ١].

وفى قصة موسى عليه السلام تؤدى الإضافة دورًا بارزًا فى إبراز المعنى فـــى جلاء وقوة، وتعمل على تصوير المشهد حيًّا حاضرًا أمام الأعين، وقصة موسى – عليه السلام– أتت فى مواضع عديدة وآيات كثيرة من سور القرآن الكريم، وبتعدد أحداثها ومشاهد تعددت أساليبها، ووسائل التعبير فيها، فعلى حين جاءت التركيـــب الإضافى بإضافة لفظ (رب) إلى (العالمين) فى الأعراف فى قوله تعـــالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف١٠٤] فجاء التعريف بالعلم، (وقال موسى يا فرعون) لتتحدد عناصر المشهد وشخصياته فى وضوح تام، فيصدر القول من موسى موجهًا على فرعون بالجملة الخبرية المؤكدة (بـــإن)؛ لمناســـبة حـــال المخاطب من الريبة فى شأن المتكلم، وربما كان ذلك الداعى لنسق العبارة القرآنية (رسولٌ من رب العالمين) ولم يقل: (رسول رب العالمين) ف: (من) تبين مصـــدر المجئ والإرسال؛ إنه (من رب العالمين) بلفظ الربوبية الذى يدخل جـــو الرعايـــة والعناية، فيكون أدعى إلى لين القلوب فى هذا المقام، وهذا الإسلوب وتلك الإضافة قد تغيرت فى حوار آخر من مشهد سورة طه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾

[طه٤٧] فتغيُّر المقام أدى إلى تغيُّر الحوار وصيغته؛ لأن هنا السياق قد حمل قول الله تعالى: (فأتياه فقولا) أما فى الأعراف: (وقال موسى ..) فإضافة (رب) إلى (كاف الخطاب) فى (إنا رسولا ربك) بآية من ربك؛ لإثارة النفس وتنبيه العقل فى رفق ولين الذى سبق هذه الآيات فى قوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه٤٤] ولذلك جاء ختام هذا المشهد الجزئى بالدعاء بالسلام والسلامة (والسلام على من اتبع الهدى) وتلك وسيلة دعوية لفتح القلوب المغلقة والقاسية.

وقد ارتسمت خطوات المشهد فى ترتيب وتعقيب منظم عن طريق الأفعال المقترنة بالفاء (فأتياه فقولا - فأرسل) .. ولكن رد فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه٤٩] فلم يقل: فمن ربنا؟ ولكنه صاغ ذلك القول فى سياق الاستفهام التعجبى الإنكارى الذى شفَّ ونمَّ عن داخلياته، وقد تأتى الإضافة فى مواجهة المعجزة الحقة مع السحر الكاذب، فأضيفت العصا إلى الضمير فى جانب موسى عليه السلام، كما أضيفت إلى ضمير الساحرين، يقول تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف١٠٧-١٠٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف١١٧] وكذا أيضا الشأن فى سورة الشعراء، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء٤٥] وجاءت الإضافة لتعلن المواجهة بين الفريقين ليتضح الحق، ويبطل الباطل؛ فأضيفت حبال السحر والعصيّ إليهم إلى شخصهم وفعلهم، قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه٦٦] وفى هذا السياق -سياق سورة طه- عُدل عن ذكر العصا بإضافته إلى الضمير ذكر اليمين المضاف إلى الضمير - أيضا- فقال جل شأنه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه ٦٧-٦٩].

ولعل هذا التغاير الأسلوبى جاء استجابة لواقع المشهد عند وقوع سحر الساحرين وارتداد الأثر النفسى عند موسى -عليه السلام- وهو ما ظهر فى قوله تعالى: (فأوجس فى نفسه خيفة موسى)، ولتجلية هذه الحالة النفسية التى تملكت موسى ولإبراز هذا الانفعال والشعور قدّم شبه الجملة (فى نفسه) وأخّر الفاعل (موسى) وكان النداء على موسى بأن (ألق ما فى يمينك) ولم يقل: كالمعتاد (عصاك) لرد النّفس -نفس موسى- إلى ثبات المعجزة الإلهية التى معه وأنه فى يمينه، ولم يقل: ما فى يدك؛ للتبرك والتيمن.

وقد أدت الإضافة تصويرًا حيًّا فى بيان حقيقة السحر التى وقعت فى تلك الساحة فأوقع السحر على الأعين المضافة للناس فقال: (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) إنها لحظات زيغ الأعين واضطرابها فتؤدى على اضطراب القلوب وزيغها، فالعين رسول القلب، لذلك لم يقل: سحروا الناس[1]، أو: سحروا عيون الناس، فالأعين هى عين الإبصار، والعيون تعني: عيون الماء، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر ١٢].

وجاء التركيب الإضافى -أيضًا- فى تلك القصة؛ ليرسم موقف المعاندين وقد قصدوا إلى إثارة الحمية العصبية، وقاموا بتحريض الناس؛ للدفاع عن أرضهم، فجاءت الأرض مضافة إلى ضمير المتكلمين تارة، وإلى ضمير المخاطبين تارة أخرى فى مواجهة إضافة السحر إلى موسى وأخيه، ويقول تعالى حكاية: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طـه٥٧] ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه٦٣].

---

(١) هذا ما استدل به المعتزلة على أن السحر تخييل ولا حقيقة له وجمهور اهل السنة على أن السحر أقسام وأنواع فقد يكون لا حقيقة له ومنه ما قد يصل إلى حد المشى على الماء او الطيران فى الهواء.

إن القصة القرآنية "هى المعرض الواسع، والمعين الثرى، والمنجم الكبير الذى يقف فيه المرء على السنن النفسية والسنن الاجتماعية والسنن الإيمانية فى الفرد والمجتمع والناس والأمم، وعلى مدى ارتباط هذه السنن بعضها ببعض، ومدى ارتباط السنن الإيمانية بالسنن الطبيعية كذلك، هنا يقف الدارس البصير على تاريخ الحضارة وتاريخ الإنسان وتاريخ النفس والاجتماع وتاريخ التاريخ[١].

وقصة موسى -عليه السلام- قد جاءت فى صور عديدة، جاءت فى سور الأعراف وطه والشعراء والقصص والنمل، وجاءت فى كل سورة مشاهد مختلفة فما بُسط هنا أوجز هناك، وما ذكر هناك حذف هنا دون تعارض أو تضارب؛ بل إنها مشاهد متكاملة متناسقة الأجزاء؛ إذا جمعت كلها بجانب بعضها خرجنا بقصة واحدة متعددة المشاهد والأجزاء، كلٌ يكمل بعضه، وهذا يسلم إلى ذاك فى ترتيب بديع ". ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم إذا ذكر قصة فتعلق ببعض الأشخاص، كموسى مثلاً والظروف المحيطة به والحوار معه، والحادث الذى وقع عنصرًا فى هذه القصة، تلمس أنه لا ينقل كل ما تلبس بها من قريب أو بعيد؛ وإنما يأخذ منها ما يكون له دلالة مقصودة، ويركز على ناحية منها فى مقام، وعلى ناحية أخرى فى مقام آخر[٢].

وتعد قصة موسى -عليه السلام- من أكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم؛ حتى قال بعض العلماء: ذكر الله موسى فى كتابه فى مائة وعشرين موضعًا، وقال ابن العربى فى القواسم: فى تسعين آية .. القصة الواحدة لما كررت كان فى ألفاظها فى كل موضع زيادة ونقصان، وتقديم وتأخير، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب فى إخراج الأمر الواحد فى صورة

---

(١) د.فهد زايد_اسرار القصة القرآنية _صـ٥٢.

(٢) السيد عبد ربه _بحوث فى قصص القرآن_ ط١_ دار الكتاب اللبنانى_بيروت_ ١٩٧٢_صـ٥٦.

متباينة فى النظم، وجذب النفوس إلى سماعهم لما جبلت عليه من حب التنقل بين الأشياء المتجددة واستلذاذها بها(١).

وقصة إبراهيم -عليه السلام- من أكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم؛ أتت فى مواضع كثيرة من سور القرآن، أتت فى هود والحجر والعنكبوت والذاريات، لتجسيد مشهد لقائه مع رسل الله من الملائكة، وأتت فى دعوتها العامة لأبيه وقومه وقد حكى هذا فى ست سور هى حسب ترتيب المصحف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة٢٥٨]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ

---

(١) السيوطى _ معترك الأقران في إعجاز القرآن _ (١/٢٦٣،٢٦٤)

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام ٧٤-٩٠]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء ٥١-٧٣]

وقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ

أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٦٩-٨٩]

وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ

وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت١٦-٢٧]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات٨٣-١١٣] وفيها بجانب مشاهد الدعوة تفصيل لحادث الابتلاء المبين والفداء العظيم[1]، وإذا وقفنا مع مشهد الدعوة فى سورة الأنبياء وجدنا التركيب الإضافى قد توافر بكثرة، وأدى دوره فى إبراز المعانى وتصويرها فى جلاء وقوة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

---

(١) د.الشحات أبو ستيت _خصائص النظم القرانى فى قصة إبراهيم عليه السلام_ط١_مطبعة الأمانة_مصر_ ١٩٩١_ صـ٢٢.

وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء٥١-٥٧] فتطالعنا الإضافة فى ناحية المشهد بقوله: (رشده)، والرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء٦] ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن[١]، وقد جاءت هذه الإضافة فى سياق التوكيد ب: (لقد) التى سبقت الفعل الماضى (آتينا) بإسناده إلى (نا) الدالة على فاعل الإيتاء؛ لتتجلى فضيلة هذا الرشد، وفائدة الإضافة هنا التنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي: رشدًا يليق به؛ فإن الإضافة لما كانت على معنى اللام كانت مفيدة للاختصاص فكأنه انفرد به[٢].

وفى تعريف إبراهيم بالعلمية إشارة إلى تعظيمه وتفخيمه، وإشارة إلى تحديد شخصه ودوره الأساسى فى القيام بالدعوة؛ ليبرز واضحًا محددًا فى وقائع أحداث المشهد الذى يسطع ببدء الحوار: (إذ قال لأبيه وقومه) فبدأ بالخاص (لأبيه) ثم العام (وقومه)، وفى إضافة الضمير إليهما لإظهار عنايته بهم وحرصه عليهم، وفى تقديم (لأبيه) على (قومه) إشارة لدور الداعية فى البدء بأهله وبيته، ثم تنطلق الدعوة إلى عموم الناس، فيكون ذلك أدعى لاستجابة الدعوة، وفى الربط بينهما بواو العطف؛ دلالة على تلازم الدعوة واستمرارها دون انفصال أو تراخٍ.

ثم جاء تفسير القول: (إذ قال) بأن وجه إليهم الدعوة عن طريق الاستفهام الذى يهزُّ للعقول: (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) وهو "من باب تجاهل العارف أو سوق المعلوم مساق غيره؛ حيث سألهم عن أصنامهم ب: (ما) التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم والجملة الاستفهامية تحمل ألوانًا من التهوين والتحقير لأصنامهم، والتوبيخ والتقريع لهم[٣].

---

(١) الزمخشري_ الكشاف_ تحقيق محمد شاهين _ ط١_دار الكتب العلمية_ بيروت_ ١٩٩٥_(١١٨/٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩٣/١٧).

(٣) د.الشحات أبو ستيت _خصائص النظم القرآنى فى قصة إبراهيم_ صـ١١٩/ ١٢٠.

وتبرز إضافة ضمير المتكلمين (نا) إلى (آباء) فى: (قالوا وجدنا آباءنا ..) فى سياق الرد على دعوة إبراهيم مدى التبعية المطلقة والتقليد الأعمى الذى ألغى عقولهم، وأوقف فضيلة التفكير عندهم، (آباءنا) إنه مجرد الإعتزاز والعصبية، وكان الرد من جنس القول: (لقد كنتم أنتم وآباؤكم) بأن أرجع الضمير إليهم فى إضافة (كم) إلى (آباء) مع التوكيد ب: (لقد) والتوكيد بالضمير البارز المنفصل (أنتم) لتعرية أنفسهم أمام أنفسهم .. وهو ما نُسِبَ إليهم أيضًا فى الأصنام التى أضيفت إلى ضمير المخاطبين (أصنامكم) ولم يقل: الأصنام إظهار لحقارتها وانحطاطها، وقد أُبرز ذلك فى سياق التوكيدات المتلاحقة فى قوة تبـ ين عزيمة إبراهيم –عليه السلام– ومضيه فى دعوته (وتالله لأكيدن) بالقسم واللام والنون، وإيثار كلمة (لأكيدن) ليذهب أثر الكيد لهم دون هذه الحجارة التى لا تشعر، وهى خطوة عملية لجأ إليها بعد عدم استجابتهم للمرحلة الأولى التى خاطب بها العقول، وحاول تحريك القلوب، كما جاء فى الإضافتين المتتابعتين من قبل: (قل بل ربكم رب السموات والأرض) فالإضافة للضمير للنظر إلى نفوسهم وخلقهم، والإضافة للسموات والأرض للنظر في الكون المحيط بهم، وجاء بلفظ الربوبية دون لفظ الإلوهية هنا؛ لمحاولة التأثير فى نفوسهم بمظاهر الرعاية والعناية والتربية التى توحى بها كلمة (رب)، يقول تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء٥٨-٦٣].

يتحول المشهد إلى إظهار التطور المفاجئ والسريع بما رسمته (الفاء) فى (فجعلهم) ولكنه ترك لهم كبير الأصنام، فجاءت الكلمة مرة نكرة (إلا كبيرًا) ثم أُعيدت معرفة الإضافة إلى ضمير الغائب (كبيرهم) ولم يقل: كبيركم أو الكبير؛ لإظهار مدى العجز والحقارة التى ترجع بدورها إلى تفاهة عقولهم وحقارة تفكيرهم، وفى هذا احتراز عجيب "فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ

التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبى إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: "إلى عظيم الفرس" أو إلى عظيم الروم" ونحو ذلك، ولم يقل: العظيم[١]، وقد ساهم السياق فى إبراز ذلك بمجئ هذه الإضافة فى سياق اسم الإشارة الدال على القريب (هذا) لتقريب هذا العجز وتلك الحقارة وإحضارها مجسدة ماثلة للعيان ومجئ الإضافة -أيضًا- فى سياق أسلوب الأمر الدال على التعجيز (فاسألوهم) وختام هذا الجزء من المشهد بقوله: (إن) دون (إذا) المفيدة للكثرة والإمكان والتوقع، وقوله: (ينطقون) دون (يتكلمون) فمن عجز عن نطق الحرف فهو أعجز عن الكلام.

وقد جرى المشهد الحوارى لقوم إبراهيم على إضافة (نا) المتكلمين فى جانب حديثهم كما مر سابقًا من (وجدنا آباءنا) وهنا فى هذه المرحلة من المشهد: (من فعل هذا بآلهتنا) .. (أأنت فعلت هذا بآلهتنا) وهى فى سياق استفهام التقرير؛ للدلالة على تعنتهم وحقارة تفكيرهم، وجاءت إضافة (أعين) إلى (الناس) لإظهار غرض التشفى العلنى؛ لكى يراه كل الناس وقد نُكّل به، وقُضى عليه -كما أرادوا- ويكون هذا تهديدًا ووعيدًا بنفس المصير لمن أراد أن يحذو حذو أو ينهج منهجه "وقد استعير حرف الاستعلاء؛ لتمكن البصر فيه حتى كأن المرئي مظروف فى الأعين[٢].

وإيثار مثل هذه الكلمات المختارة؛ إنما هى لأداء وظيفة معنوية وإبراز مشاهد حسية وإخراج دواخل النفس فيتفاعل المتلقى مع الأحداث ويعيشها كأنها رأى عين "وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير، وهى غرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه فى جنسه ومائه[٣]"

---

(١) تفسير السعدى _ صـ٤٩٨.

(٢) التحرير والتنوير _ (١٧/١٠٠).

(٣) الباقلانى _ إعجاز القرآن_تحقيق السيد صقر_ ط٣_ دار المعارف_مصر_ صـ٤٢.

الخاتمة

تتمتع اللغة العربية بثراء عجيب من التراكيب والأساليب والمفردات وأسرارها التى لا تنفد، وقد كتب الله لها البقاء ما بقى القرآن الكريم بأسراره وعجائبه التى لا تنقضى ولا تنفد، وكان التركيب الإضافى أحد أسرار اللغة العربية وسرًّا من أسرار القرآن الكريم الذى جاء بصيغ متباينة فى كل مقام؛ ليصور المشاهد تصويرًا حيًّا، ويبرز خفاياها وأجزاءَها فى كل إطار متكامل متجانس؛ فاستطاعت الإضافة أن تصور ساحة القيامة بمراحلها المختلفة وأحوالها المتباينة، فصورت المشاهد الحركية نحو مشهد القيام فى (يوم القيامة) ومشهد الخروج فى (يوم الخروج) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق٤٢] أو حركة الرجفة فى الإضافة إلى الجملة الفعلية (يوم ترجف) قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل١٤] أو حركة الزلزلة: (زلزلة الساعة) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج١] **أو مشهد الفرار فى الإضافة إلى الجملة الفعلية (يوم يفر) قال تعالى:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس٣٤] **أو تصور الإضافة المشهد الصوتى برهبته وجلاله: (يوم التناد) قال تعالى:** ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر٣٢] أو المشهد النفسى بألمه وكآبته (يوم الحسرة) قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم٣٩] أو حركة التجمع ومشهده: (يوم الجمع) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التغابن٩] فقد صورت كل إضافة جزءًا من المشهد الكلى الذى تزخر به ساحة الآخرة، هذا وما جاء التركيب الإضافى لكلمة (أصحاب) فى معرض الحديث عن النار إلا مضافًا لكلمة من ثلاث كلمات هى: (النار – الجحيم– السعير) فلم تأت – مثلاً– أصحاب الحريق أو أصحاب جهنم أو غير ذلك، أما إضافة (أصحاب) إلى

(الميمنة) و (المشأمة) كما في سورة الواقعة فقد تكون الإضافة لبيان مشهد أخذ الملائكة لهم جهة اليمين واتجاههم نحوه، وإضافة (أصحاب) إلى (اليمين) و (الشمال) لبيان مشهد أخذ الكتاب والله تعالى أعلم.

وقد تنوعت أغراض الإضافة بتنوع المشاهد والسياقات الواردة فيها، واستطاعت الإضافة أن تدور مع الأغراض المختلفة من مدح وتعظيم إلى ذم وتحقير وتهويل إلى غير ذلك من الأغراض التى مرَّت، إلا أن هذه الأغراض كانت تعمق المعانى وتغوص بالمتلقى؛ ليستنبط ويتأمل ويدع لخياله العنان؛ لتصور المشاهد بحيويتها ونبضها؛ فالإضافة التوضيحية مثلاً فى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم٢٥] فأضاف (بجذع) إلى (النخلة) لبيان الصورة الحسية التى تهز النفس معها وأيّ هزّ هذا الذى يصدر من امرأة فى حالة وضع مولودها؛ وليس هذا فحسب بل إنه الهزّ من جذع النخلة فتكون النتيجة: (تساقط عليك رطبًا جنيا) ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم٢٥] أو تنقل النفس مع توجه الشمس يمينًا أو يسارًا كما رسمت الإضافة فى قوله: (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) وهذا كله فى سياق خطاب حاسة البصر: (وترى) وحركة تزوار الشمس – أي: ميلها– عند الطلوع وثم المجئ عليهم بقدر قليل عند الغروب كما دل فعل القرض: (تقرضهم)؛ ليكون قدر الحاجة كما يأخذ المقترض لسد حاجته.

وقد تأتى الإضافة لإثارة النفس وتحريضها لفعل شيء ما أو تركه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء١٠] وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام١٥٢]

فإضافة (مال) إلى اليتيم يثير الشفقة فى النفس وترسم جو اليتيم المؤثر، ومن ذلك إضافة (حزب) إلى (الشيطان) أو يضاف إلى لفظ الجلالة كقوله تعالى:

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة١٩] وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة٢٢] أو إضافة (سبيل) إلى لفظ الجلالة (الله) كقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة٦٠] فهى مع دلالتها على الشمول تثير فى النفس الإخلاص والرغبة إلى الله، أو إثارة النفور من حزب الشيطان.

وكانت الإضافة للضمير هى من أكثر الإضافات ورودًا فى القصص القرآنى – إن لم تكن أكثرها– وذلك لما تقوم عليه القصة من عناصر أساسية تتمثل فى الحوار والشخصيات غير أن الإضافة إلى الضمير قد قامت بدور فعّال فى رسم المشاهد وإخراج أغوار النفس بصفة عامة كإبراز سلوك السخرية والتهكم والاستهزاء الصادر من المعاندين والكافرين، وذلك فى قوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء٢٧] فأضيف (رسول) إلى كاف الخطاب استهزاء وسخرية، ولم يقولوا: إن الرسول؛ بل قالوا ذلك مؤكدين ب: (إن– اللام فى (المجنون) مما يعكس مدى تعنتهم وشدة إعراضهم.

وهى نفسها –الإضافة إلى الضمير– تأتى فى موضع آخر؛ للتمكين فى ذهن السامع بالخطاب العقلى كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ٤٦] وقوله النجم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير٢٢] فلم يقل: ما برسولنا أو نحو ذلك، توبيخًا وتقريعًا، فهو (صاحبكم) الذى نشأ بينكم وتعرفونه حق المعرفة.

وربما جاز لنا أن نعتبر إضافة الضمير فى قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة٤] فهى –أي: البنان– خاصة بكل إنسان؛ فينفرد بأنامله المخصوصة دون غيره، ولذلك خُصَّتْ بالذكر والتسوية.

المصادرُ والمراجعُ

١- ابن أبى الإصبع المصرى- بديع القرآن – تحقيق حفنى شرف- نهضة مصر.

٢- ابن جماعة –كشف المعانى فى المتشابه من المثانى – تحقيق مرزوق إبراهيم – ط١- دار الشريف – السعودية –١٤٢٠هـ.

٣- ابن عاشور- التحرير والتنوير- الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤.

٤- ابن عطية – المحررالوجيز فى تفسير الكتاب العزيز – تحقيق عبدالله الأنصارى والسيد إبراهيم – ط١ – دار الفكر العربى – القاهرة.

٥- ابن منظور – لسان العرب – ط١- دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٣.

٦- أبو حيان- البحر المحيط – تحقيق د.عبد الرازق المهدى – ط١- دار إحياء التراث العربى- بيروت –١٩٩٠.

٧- الأشمونى – شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك –تقديم وإشراف حسن حمد – د.إميل يعقوب – ط١- دار الكتب العلمية – بيروت- ١٩٩٨.

٨- الألوسى- روح المعانى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.

٩- امرؤ القيس – ديوانه – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط٤ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٨٤.

١٠- الباقلانى- إعجاز القرآن- تحقيق السيد صقر- ط٣- دار المعارف.

١١- البقاعى- نظم الدررفى تناسب الآيات والسور- تحقيق عبد الرازق المهدى- ط١- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٩٥.

١٢- الجوهرى – شرح شذور الذهب – تحقيق د. الحارثى- ط١- مكتبة الملك الوطنية – السعودية – ٢٠٠٤.

١٣- الخوارزمى – شرح المفصل فى صنعة الإعراب – تحقيق د.عبدالرحمن العثيمين – ط١- دار الغرب الإسلامى- بيروت-١٩٩٠.

١٤- د. حامد صادق – المشاهد فى القرآن الكريم – دارسة تحليلية وصفية – ط١- مكتبة المنار- الأردن -١٩٨٤.

١٥- د. صلاح الخالدى – عتاب الرسول فى القرآن – ط١ – دار القلم – دمشق – ٢٠٠٤.

١٦- د.أحمد بدوى- من بلاغة القرآن- دار نهضة مصر- القاهرة.

١٧- د.الشحات أبو ستيت – خصائص النظم القرآنى فى قصة إبراهيم عليه السلام – ط١ – مطبعة الأمانة – مصر – ١٩٩١.

١٨- د.فهد زايد – أسرار القصة القرآنية – ط١ – دار يافا العلمية – عمّان – ٢٠٠٧.

١٩- د.محمد عيد –النحو المصفى – ط١ – عالم الكتب – القاهرة – ٢٠٠٥

٢٠- الدامغانى – الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز – تحقيق عربى عبد الحميد –ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠٠٣.

٢١- الدسوقى (حاشية الدسوقى) على مختصر السعد شرح تلخيص المفتاح – تحقيق د.خليل إبراهيم – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت-٢٠٠٢

٢٢- رشيد رضا – تفسير المنار- شرح إبراهيم شمس الدين – ط٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠٠٥.

٢٣- رضى الدين بن الحسن – شرح كافية ابن الحاجب- تحقيق د. إميل يعقوب – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٨.

٢٤- الزمخشرى – تفسير الكشاف – تحقيق محمد شاهين – ط١- دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٥.

٢٥- السعدى – تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان – تحقيق: عبد الرحمن اللويحق – ط١ – دار ابن حزم – بيروت – ٢٠٠٣.

٢٦- السكاكى – مفتاح العلوم – تحقيق د.عبد الحميد هنداوى – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت٢٠٠٠.

٢٧- سيبويه – الكتاب – تحقيق د.إميل يعقوب – ط١- دار الكتب العلمية – بيروت١٩٩٩.

٢٨- السيد عبد ربه – بحوث فى قصص القرآن الكريم – ط١ – دار الكتب اللبنانى – بيروت – ١٩٧٢.

٢٩- سيد قطب – فى ظلال القرآن – ط١٠ – دار الشروق – بيروت – القاهرة – ١٩٨٢.

٣٠- سيد قطب – مشاهد القيامة فى القرآن – دار الشروق – بيروت – القاهرة

٣١- السيوطى – معترك الأقران فى إعجاز القرآن – تحقيق أحمد شمس الدين – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٨.

٣٢- عبد القاهر الجرجانى – دلائل الإعجاز – تحقيق محمود شاكر– ط٣ – مطبعة المدنى – مصر – جدة – ١٩٩٢.

٣٣- عبد المتعال الصعيدى – بغية الإيضاح – مكتبة الأداب – القاهرة.

٣٤- عماد الدين الأيوبى – الكناش فى فنيّ النحو والصرف – تحقيق د.رياض الخوّام – المكتبة العصرية – بيروت – ٢٠٠٤.

٣٥- القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – تحقيق د.محمد الحفناوى – ط١ – دار الحديث – القاهرة – ١٩٩٤.

٣٦- الكرمانى– البرهان فى توجيه متشابه القرآن – تحقيق عبد القادرعطا – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٦.

٣٧- محى الدين شيخ زاده – حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى – تحقيق محمد شاهين – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٩.

٣٨- الهاشمى – جواهر البلاغة – شرح وتحقيق حسن حمد – دار الجيل – بيروت.